الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون – تيارت

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في "تاريخ المغرب العربي المعاصر"

موسومة بـ :

عبد الرحمان بن زيدان ودوره في كتابة تاريخ الدولة العلوية بالمغرب الأقصى

من إعداد الطلبة :

❖ بلحول مختار

❖ بن مغنية مصطفى

إشراف الأستاذة:

الدكتورة : لزغم فوزية

لجنة المناقشة

البروفيسور أ.د: شرف عبد الحق : ..... رئيسا

الدكتورة : لزغم فوزية :..... مشرفا ومقررا

الدكتور : بكاري عبد القادر : ..... مناقشا

الموسم الجامعي : (1439هـ-1440 هـ/ 2018-2019م)

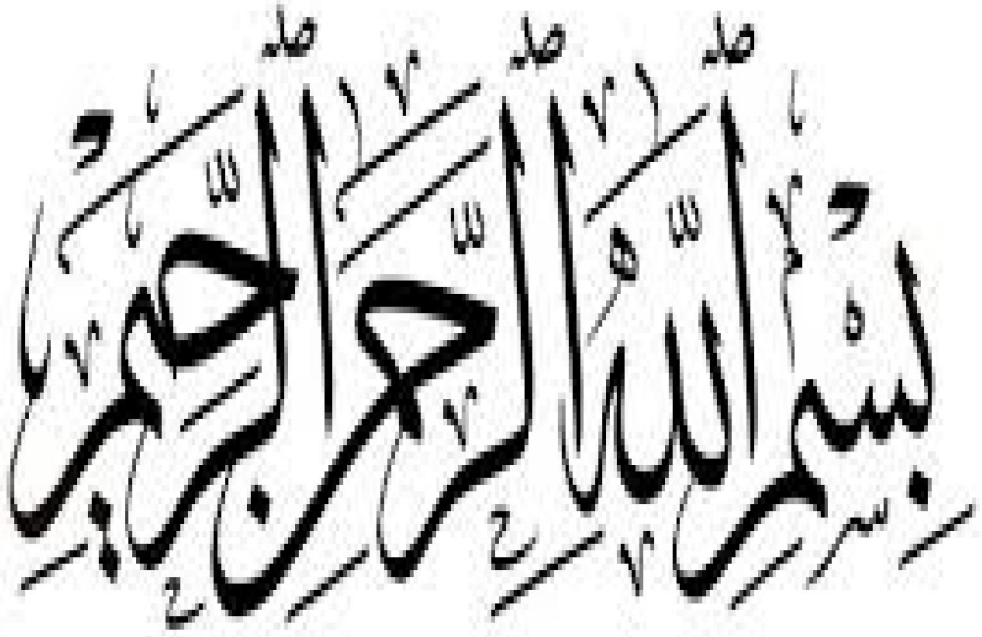
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

اهدي هذا العمل إلى أرواح مليون ونصف المليون من شهداء الثورة التحريرية الذين ماتوا إخلاصا للجزائر وقضيتها العادلة.

إلى من غرسا في نفسي حب العلم والمثابرة في تحصيله أطال الله في عمرهما اللذان قال فيهما الرحمان:<< ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا>>

إلى * أمي* التي تعبت في تربيتي وفرحت لنجاحي.

إلى أبي الذي كابد المشاق من اجل إسعادي ونجاحي.

إلى كل أساتذتي الذين أكن لهم التقدير والاحترام.

إلى الأصدقاء الأعزاء كل واحد باسمه: * هشام قاصدي * الدكتور يحي بولحية* *الدكتور خالد طحطح* *ساعد قشابي*بلخير بن عودة*.* الحاج دحام* *عجالي جلول* وغيرهم

فجزا الله الجميع وأهدي لهم هذا العمل رغم تواضعه

بلحول مختار

شكر وعرفان

نشكر الله عز وجل ونحمده كثيرا على التوفيق في انجاز هذا البحث ونتقدم بالشكر خاصة إلى أستاذتنا المشرفة الدكتورة لزغم فوزية التي تتبعت أخطاءنا وصوبتها وكانت سندا وعونا لنا طيلة مراحل هذا البحث فجزاك الله عنا كل خير وأكرمك وأجزل لك العطاء إن شاء الله على ما قدمته لنا .

كما أتوجه بشكري الخاص إلى كل أساتذتنا الكرام بقسم العلوم الإنسانية بجامعة ابن خلدون بتيارت.

كما أخص بالشكر والتقدير سيدي البروفيسور عبد الحق شرف على التوجيه والنصائح المقدمة فله منا جزيل الشكر والتقدير والاحترام

كما نتقدم بالشكر إلى الدكتور يحي بولحية ، والدكتور خالد طحطح على ما قدماه لنا من يد المساعدة في الحصول على بعض الكتب

كما نشكر أصدقاءنا الذين كانوا خير معين لنا لو بالكلمة الطيبة ، قاصدي هشام ، بلحول محمد ، بلعباس أمين ، بلحول ناصر ،

كما نتقدم بالشكر إلى طلبة قسم العلوم الإنسانية وزملائنا في تخصص تاريخ المغرب العربي المعاصر من أولهم إلى آخرهم

والشكر والتقدير للجميع

إهـــــــــــــــداء

السعادة كانت لتكون الأم وحنانها وجد لبهجة القلب وعطفها طمأنينة للنفس وما كنت لأكون إلا لأهدي لها كل ما أملك بما فيها هذا العمل المتواضع.....إلى أمي .....إلى أمي.....إلى أمي

الأبوة فخر الأبناء ونجاحهم فخر الإباء فإليه أضع كل النجاح في سبيل مايرضاه ..... إلى أبي وإذا كانت الإخوة قدرها إن تنمي ذلك الانتماء للعائلة وقدري كأخ أن يكون بهذا المفهوم فكل الإهداء و أجملها إلى إخوتي و أخواتي إلى اعز الأصدقاء واقرب الأحباء والى معلمي ومشايخي

مصطفى بن مغنية

قائمة المختصرات باللغة بالعربية:

تح :تحقيق

تع :تعريب

ج : جزء

ص : صفحة

ص ص: صفحات

ط : طبعة

ع: العدد

مج : مجلة

مقدمة

وجد في تاريخ المغرب الأقصى قديمه وحديثه أعلام أفذاذ نالوا من ثقافة عصرهم ما أهلهم لحمل وأداء الرسالة ، على الرغم مما عانته هذه الثقافة من جمود وركود ، ومن اضطرابات داخلية وخارجية التي كانت باعثة على اليأس في بعض الأحيان ، ولكن هؤلاء الأعلام واجهوا ذلك وتجاوزوا التحديات والمعيقات التي تحول بينهم وبين مرادهم وهدفهم في سبيل تبليغ الرسالة المنشودة .

ومن هؤلاء الأعلام الذين برزوا في الساحة الثقافية والعلمية للمغرب الأقصى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هو أبو زيد عبد الرحمان بن زيدان ، الذي حمل على عاتقه رسالة ثقافية ، واقتحم عدة مجالات وميادين كان أبرزها ميدان التاريخ ، وكان إنتاجه في مجال التاريخ وفير وغزير جدا ، خصوصا ما تعلق بتاريخ المغرب الأقصى عامة وتاريخ الدولة العلوية بصفة خاصة ، وتتبعه لتلك الأحداث المعاشة في عصره ورصد كل كبيرة وصغيرة مما شاهده أو سمع عنه .

وبفضل انتمائه إلى الأسرة العلوية التي كان هو نقيبها في مكناس ، وكذا بفضل ما ناله من ثقافة العصر ، وما كان يستند إليه من طموح علمي وأدبي ، تسنى له أن يضع يده على النفيس من الوثائق والمخطوطات ومنها استطاع أن يحرر ويؤلف كتابات قيمة عن المدينة مكناس ، وعن الدولة العلوية وملوكها ومن نبغ في أحضانها .

وهذا ما يدفعنا إلى طرح الإشكالية التالية عن ما مدى مساهمة عبد الرحمان بن زيدان في الحياة الثقافية بالمغرب الأقصى ؟ وهل كان عبد الرحمان بن زيدان فاعلا في تلك الفترة ؟

وينجر عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات

- من هو عبد الرحمان بن زيدان ؟
- وما هي نظرته إلى ميدان التاريخ ؟
- فيما تمثلت مساهمته في كتابة تاريخ الدولة العلوية بالمغرب الأقصى وما كانت وسائله في ذلك ؟

إن هدف هذه الدراسة ليس هو حصر لتعرف على شخصية عبد الرحمان ابن زيدان بقدر ما هو تحديد لمساهمتها ودروها في ميدان التاريخ ، وكتابة تاريخ الدولة العلوية بالمغرب الأقصى ، والفكر الذي تبناه في كتابة هذا التاريخ .

أما أسباب اختيار الموضوع ترجع إلى :

أن شخصية عبد الرحمان بن زيدان لم تكن مدروسة دراسة وافية ،فكثير من نقاط الغموض والظل ما تزال تلف مساره الثقافي والعلمي ، فجل الكتابات التاريخية حول هذه الشخصية ما تزال قليلة وإن وجدت فهي مقتصرة على جوانب محدودة، وهناك دوافع أخرى أدت بالاهتمام بهذا الموضوع وهو إظهار الحقيقة التاريخية ولو نسبيا وإعطاء الرجل المكانة التي يستحقها في سياق تاريخ المغرب الأقصى المعاصر وإبراز إسهامه في كتابة تاريخ الدولة العلوية بالمغرب الأقصى، و الرغبة في معرفة تطور الفكر التاريخي والسياسي لدى ابن زيدان ، كرائد للكتابات التاريخية بنظرة مغايرة للنظرة التقليدية .

وقبل أن يخرج البحث بالصورة التي هو عليها ، اعترضتنا صعوبات جمة أهمها :

- قلة المادة العلمية : حتى أننا لم نتمكن من تناول ما يتعلق بشخصية ابن زيدان بالقدر الكافي لعدم وجود مادة علمية خصت ابن زيدان بدراسة مفصلة إلا ما كان من بعض الاجتهادات لكن بصورة محتشمة لا ترقى إلى التفصيل بصورة كاملة .

وأمام قلة المادة العلمية يطرح مشكل تداخل بعض الدراسات في ترجمة شخصية ابن زيدان في جوانب أخرى غير التاريخ ، ممثلة في الجانب الأدبي وغيرها من الترجمات والتعريفات

وما زاد في صعوبة المهمة هو اتساع المجال الجغرافي للبحث فهو يشمل تقريبا كل المغرب الأقصى من قبل الحماية إلى تاريخ وفاة الشخصية المدروسة .

وقلة الدراسات التي خاضت في شان ابن زيدان ودوره ومساهمته في كتابة تاريخ المغرب الأقصى في الفترة المعاصرة .

أما المنهج المتبع فهو المنهج السردي التحليلي التاريخي ، من خلال تقديم ومناقشة كل ما يستحق المناقشة والتحليل ، والغرض من ذلك كله هو التوصل إلى معرفة صحيحة للشخصية المدروسة ، والوقوف على كتابات الشخصية المدروسة في ما تعلق بمساهمتها في كتابة التاريخ على العهد العلوي ومقارنتها ببعضها البعض والخروج باستنتاجات من أغراض والهدف من هذا النوع من الكتابات التاريخية .

وقد اعتمدنا في انجازه هذا البحث على مصادر متنوعة منها كتب الشخصية المدروسة في حد ذاتها إضافة إلى مصادر أخرى ترجمت وكتبت عن شخص ابن زيدان وإن كانت بصورة ضئيلة جدا ، ومن بين المصادر وأهمها إفادة للموضوع نذكر :

-"إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس" لعبد الرحمان بن زيدان وهو يضم أكثر من ألف صفحة ، وهو عبارة عن تاريخ محلي لحاضرة مكناس ، وترجمة لعلمائها ومن حل بها ومفاخر سلاطينها وغيرها ، وقد تمكنا من هذا الكتاب من خلال الوقوف على أهم الأحداث التي ميزت المفترة التي درسها الكتاب ، وهنا تكمن أهمية الكتاب بالنسبة لموضوعنا

- " معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " لعبد الرحمان بن زيدان ، وهو في جزئين ضم الجزء الأول عمل المحقق حسن الوزاني في تحقيق وتقديم الكتاب ، وضم الجزء الثاني الترجمة للمؤلفين الذين حصرهم ابن زيدان في مؤلفه وقد بلغ عدد أكثر من ثلاث مئة مؤلف شملتهم ابن زيدان بتعريفات شاملة ، وتكمن أهمية الكتاب في مدى مساهمة عبد الرحمان بن زيدان في كتابة تاريخ العلويين والتعريف بأعلامهم ، وهذا ما خدم موضوعنا في التعرف على ابن زيدان أكثر .

" سل النصال بأشياخ وأهل الكمال فهرس الشيوخ " لعبد السلام بن عبد القادر بن سودة ، الذي أفادنا في التعريف وترجمة عبد الرحمان بن زيدان من نشأة ومولد وغيرها .

"مؤرخو الشرفاء" لليفي بروفنصال وكان من بين المصادر التي أفادتنا في معرفة توجه كتاب التاريخ في الفترة المعاصرة وما كان الهدف منها .

"الأعلام " الجزء الثالث لخير الدين الزركلي الذي أفادنا في التعرف على الحياة العلمية والثقافية لابن زيدان

وغيرها من المصادر التي كانت في مجملها لعبد الرحمان بن زيدان والتي ساعدتنا في الغوص و كشف مراد ابن زيدان من كتاباته التاريخية وما كان الغرض منها.

أما المراجع المعتمدة في البحث فهي على قلتها نذكر أهمها

محمد المنوني ومساهمته بمؤلفه " مصادر تاريخ المغرب الأقصى " والذي أفادنا في معرفة مصادر ابن زيدان ومقارنتها والتعرف عليها عن قرب .

خالد طحطح ومحمد بكور ، " مؤرخون مغاربة في الفترة المعاصرة" وهو مؤلف يضم ترجمة عدة أعيان وعلماء من المؤرخين المعاصرين خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ومن بينهم عبد الرحمان ابن زيدان الذي خصه هذا الكتاب بدراسة نوعا ما ايجابية شملت نواحي من حياته ومؤلفاته ومساهماته بصورة مبسطة .

ومصطفى الشابي ، "النخبة المخزنية في القرن التاسع عشر " وقد شمل هذا المؤلف على ترجمة لشخصية ابن زيدان والتعريف بها والتعريف بمؤلفاته ودراسة الأفكار السياسية والتاريخية التي تبناها ابن زيدان وما كان الغرض منها .

وقد قسمنا البحث إلى مقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة، مدخل بعنوان " الأوضاع العامة بالمغرب الأقصى في عصر عبد الرحمان ابن زيدان "تناولنا فيه الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالإضافة إلى واقع الكتابة التاريخية بالمغرب الأقصى على العهد العلوي .

أما الفصل الأول فقد عنوناه ب" عبد الرحمان بن زيدان النشأة والتكوين " وضم مبحثين وكل مبحث احتوى على أربعة عناوين ، فالمبحث الأول خاص بالتعريف بشخصية عبد الرحمان بن زيدان تناولنا فيه المولد والنشأة والتعليم ومكتبته ومجالسه وتطرقنا إلى وفاته باختصار، وخصصنا المبحث الثاني لنشاط العلمي لعبد الرحمان بن زيدان وشمل نشاطه الثقافي والعلمي ممثلا في محاضراته ومسامراته ورسائله ورحلاته العلمية وكذا مؤلفاته وأعمال في مجال التاريخ .

أما الفصل الثاني فعنوناه ب" عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا " وضم ثلاث مباحث وكل مبحث احتوى على ثلاث عناوين ، فالمبحث الأول جاء بعنوان مساهمة عبد الرحمان بن زيدان في كتابة التاريخ تطرقنا فيه إلى مفهوم التاريخ عند ابن زيدان ودور ابن زيدان في كتابة التاريخ على العهد العلوي والظروف التي ألف فيها ابن زيدان تاريخه ، والمبحث الثاني جاء بعنوان عبد الرحمان بن زيدان وفكره السياسي والتاريخي في كتابة التاريخ ، وقد تطرقنا فيه إلى أسلوب ابن زيدان في كتاباته والأفكار السياسية والتاريخية التي طرقها في مؤلفاته والوسائل التي اعتمد عليها في ذلك ، والمبحث الثالث المعنون ب" مادة التاريخ عند ابن زيدان " وتناولنا فيه التاريخ السياسي والعسكري والتاريخ الاجتماعي والتاريخ الديني والقضائي.

أما الفصل الثالث فعنوناه ب " مؤلفات ابن زيدان في تاريخ الدولة العلوية " وقد اردنا من خلاله التطرق إلى دراسة نماذج من كتابات ومؤلفات ابن زيدان عن الدولة العلوية وتبيان أهميتها، واخترنا أربعة نماذج جاءت في أربعة مباحث ، فالمبحث الأول ضم نموذج أو مؤلف إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس" والمبحث الثاني ضم دراسة مؤلف " معجم طبقات المؤلفين على عهد

دولة العلويين " والمبحث الثالث ضم كتاب" المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف " والمبحث الرابع طرقنا فيه بالدراسة لكتاب " العلائق السياسية لدولة العلوية "أو التاريخ الدبلوماسي"

وأنهينا البحث بخاتمة ، وهي عبارة عن تلخيص لبعض الاستنتاجات المتوصل إليها في الفصول السابقة .والله ولي التوفيق .

المدخل : الأوضاع العامة بالمغرب الأقصى في عصر عبد الرحمان بن زيدان

أولا : الأوضاع السياسية

ثانيا : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

ثالثا : الأوضاع الثقافية

رابعا : واقع الكتابة التاريخية بالمغرب الأقصى على العهد العلوي

شهد المغرب الأقصى خلال الفترة المعاصرة تحولات عديدة وأوضاع مضطربة في عدة ميادين من سياسية وعسكرية وثقافية واجتماعية ، كان لها وقعها في تغيير مجريات ما كان للمغرب الأقصى من عراقة ضاربة في جذور الماضي ، ليركن في الأخير إلى الحماية الفرنسية التي غيرت من ما كان للدولة العلوية وسلاطينها من سياسات وممارسات وغيرها من أشكال الحماية التي أرادتها فرنسا من ذلك خلال القرن العشرين

أولا: الأوضاع السياسية والعسكرية :

منذ نهاية حكم السلطان المولى إسماعيل،[1]صار المغرب يعرف لدى خصومه الأوربيين بالرجل المريض ، وقد كشفت هزيمته أمام الفرنسيين في معركة إيسلي سنة 1844 [2]، ومعاهدة أو اتفاقية لالا مغنية سنة 1845م عن مدى تردي أوضاعه العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية بالمغرب أثارت بذلك أطماع الدول الاستعمارية إليه ، ووضعت حدا لهيبة واستقلال المغرب[3].

1- إسماعيل (1645م-1772م): إسماعيل بن محمد الشريف بن علي الشريف ، سلطان علوي ، جعل مكناس عاصمة لدولته العلوية، حكم مدة 57 سنة تميزت بالقوة والازدهار ، ينظر ، خير الدين الزركلي ، الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ج:1، ط:7 ،1986، ص:325.

2- كان الضغط الفرنسي على الأمير عبد القادر في المرحلة الثانية من مقاومته الأثر الكبير في تراجعه إلى الحدود الشرقية المغربية في ضواحي وجدة, فاستغل هذا الوضع في جعل هذه المناطق قاعدة خلفية في مواجهة الفرنسيين, الأمر الذي أدى إلى تدهور العلاقات المغربية الفرنسية, حيث طالبت هذه الاخيرة طرد الأمير من التراب المغربي, إلى أن عدم استجابة السلطان لمطالب فرنسا أدى مواجهة عسكرية فرنسية مغربية تمثلت في معركة إيسلي : ينظر محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1:،المطبعة التجارية، ص: 291

3- محمد العربي معريش ، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول ،بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ط:1 ، 1998، ص:39.

ويمكن تحديد أهم مظاهر فقدان السيادة من تدهور أوضاع المغرب الأقصى إلى خلع السلطان عبد العزيز في ظاهرة الحماية ، والضغوط الأجنبية للأشراف المباشر على الإدارة[1].

وبعد تولي السلطان الحسن الأول لعرش الحكم في المغرب الأقصى ، قام هذا الأخير بعدة إصلاحات ، حيث أولى عناية بالخارجية المغربية التي أدخل عليها إصلاحات هامة واحدة لها وزارة منفردة ، وكان لها وزير خارجية يعرف بوزير البحر وهو مكلف بمراسلة سفراء الدول الأوربية والشام والقيام بدور الوساطة بينهم وبين السلطان ، وقد عمد المولى الحسن الأول إلى تجهيز القبائل بالعتاد العسكري والإكثار من السلاح ، وسلك نهجا مرنا في مدافعة الدول بعضها ببعض وضمان توازن وذلك للحيلولة بينها وبين أي تدخل أجنبي في شؤون البلاد ، فاستند غلى الخبراء الفرنسيين للتدريب العسكري للجنود [2].

وقد أنشأ الحسن الأول في فاس دار السلاح وكان تأسيسها لى اليد المهندس لوطري ، وكان افتتاحها في مهرجان عظيم بإقامة السلطان الحسن الأول وكانت تشمل دار السلاح على ثلاثة معامل كلها تستخدم بالماء ، الأول معمل لصنع البنادق تامة الأدوات من حديد وغيرها ، والثاني معمل لصنع القرطاس والثالث معمل لضرب السكة المغربية ،وقد وضع ضرب السكة المغربية أيام السلطان الحسن من فئة عشرة وخمسة وعشرون ، موزونات ونصف موزونة ، وكانت هذه القطع النحاسية المكتوب على أحد وجهيها أنها ضربت بفاس واستحداثه لوزارة المالية [3].

1- عبد القادر قوبع ، الحركة الإصلاحية في منطقة الحماية الفرنسية بالمغرب الأقصى بين سنتي 1912و1956 ، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر ، جامعة الجزائر 2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ،قسم التاريخ ، 2013-2014 ،ص:14.

2- عبد العزيز بن عبد الله ، تاريخ المغرب ، العصر الحديث والفترة المعاصرة ، الداء البيضاء ، مكتبة السلام للنشر ،ج:2 ، ص : 86.

3-محمد المنوني ، مظاهر يقظة المغرب الحديث ، الرباط ، مطبعة الأمنية ، ج:1، ط:1، 1973م، ص:71.

لكن في عهد السلطان الحسن الأول ظهرت اضطرابات كثيرة ، منها ظهور التمردات لبعض الزوايا التي كانت تحظى بامتيازات ، كالزاوية الدرقاوية ، وبالتالي ظهرت الثورات المناوئة للسلطة المخزنية ، وانتشرت في عدة من المغرب [1] .

وقد شاعت في الاتفاقيات والمعاهدات على المغرب وقتئذ من طرف الدول الأجنبية، ظاهرة مطالبتها بحقها في حماية عدد من المغاربة من الموظفين والعاملين بقنصلياتها ، وحتى من التجار والحرفيين والإقطاعيين والأعيان ،حتى صار المحمي[2] المغربي معفى من الضريبة ومن المحاكمة إلا بحضور قنصل الدولة الحامية له باعتباره محميا ومتجنسا بجنسية هذه الدولة [3] .

وتطور الأمر إلى متاجرة الوزراء المفوضين والقناصل في الحمايات فصارت تمنح بهدف تكثير المحميين وكسب الجواسيس ، وسلك المحميون سلوكا استفزازيا في تعاملهم مع المغاربة غير المحميين الذين لم تستطع المحاكم المغربية أن تنصفهم خاصة بعدما تم الاعتراف للأجانب بحق إنشاء محاكم قنصلية أو مشتركة لرعاياهم ومحمييهم ، وزادت الأوضاع تعقيدا وسوءا بوفاة السلطان الحسن الأول

1- مصطفى الشابي ، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر ، الرباط ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، 1995م، ص ،ص : 24،25.

2- الحماية القنصلية أو الحماية الدبلوماسية : هي امتياز منح لعدد من الدول الأوربية ، والولايات المتحدة يسمح لممثليهم في المغرب من وزراء مفوضين ، وقناصل ، وتجار بإضفاء حماية دولهم على من يستخدمونهم من الرعايا المغاربة ، ليصبح هؤلاء المحميين خاضعين لسلطة الدولة الحامية سياسيا وقانونيا ويعفيهم المخزن من كافة الضرائب والالتزامات المفروضة على غيرهم من المواطنين المغاربة : ينظر عبد الوهاب بن منصور ، مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد 1860،الرباط ، المطبعة الملكية ،ط:2، 1985م، ص،ص: 5،6.

3- نفسه، ص : 14.

سنة 1894م [1]، وتوقف إصلاحاته وبتولي ابنه القاصر عبد العزيز الذي لم يكن سوى أداة طيعة في يد وزيره أحمد بن موسى الذي سيطر على مقاليد الدولة ووجهها الوجهة الخاطئة [2].

وأهم ما ميز عهد السلطان عبد العزيز هو ازدياد القروض وتراكمها وفرض ضرائب جديدة على الأهالي ، فقد اقترض عبد العزيز ما قيمته 62.5 مليون فرنك فرنسي من فرنسا بفائدة سنوية قدرها 5% وفي مقابل ذلك قدم رهنا مقداره 60% من مداخيل الجمارك تأخذها فرنسا مباشرة بواسطة موظفين فرنسيين متواجدين بالموانئ المغربية وبدار الجبايات مكس المدن وغيرها ، ووصلت القروض في عهد السلطان عبد الحفيظ إلى 101 مليون عام 1910م .[3]

وعندما أعلنت الحماية الفرنسية بموجب اتفاقية عقد الحماية في 30مارس 1912، كان عبد الرحمان بن زيدان في الرابعة والثلاثين من عمره ،ومعنى ذلك أنه كان في مرحلة من العمر يكون فيها الإدراك والتميز تامين حين كان المغرب يعيش أحداثا خطيرة ،سيكون لها تأثير حاسم على الحياة السياسية والاقتصادية و الفكرية والثقافية ، مثلما كان المغرب في حال من الترقب لما يحيط به من أطماع ومؤامرات استعمارية ، وكان البلد يشهد فتنا شديدة أعقبت وفاة الملك القوي الحسن الأول فتن خلقت أحوالا من الفوضى وانعدام الأمن في شمال المغرب ، وفي مناطق من جنوبه ، وفي شرقه خاصة [4].

ففي شرق المغرب ، وفي نواحي مدينة وجدة على وجه أخص ، تمكن المسمى الجيلالي الزرهوني المعروف ب"بوحمارة" أن ينشر الرعب والفزع لعدة سنوات ، ومنذ أن نزح بالقرب من فاس إثر وفاة

1- الحسن الأول : الحسن الأول بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام ، ولد عام 1831م بويع سلطانا عام 1873م توفي عام 1894م ، اشتهر بإصلاحاته وهيمنته على شؤون مملكته ، ينظر العربي معريش ، المرجع السابق ، ، ص :65.

2- غلاب عبد الكريم ، قراءة جديدة في تاريخ المغرب الغربي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ج:3، ط:1 ، 2005 ، ص:128.

3 - عبد القادر قوبع ، الحركة الإصلاحية في منطقة الحماية الفرنسية بالمغرب الأقصى بين سنتي 1912-1956م، المرجع السابق ، ص:15.

4- سعيد بن سعيد العلوي ، مؤرخ المملكة المغربية ، مج: التاريخ العربي ،ع:9،1999،ص،ص:105 ،108.

الحسن الأول مدعيا أنه ابن السلطان والوريث الشرعي للحكم ملتمسا وسائل في ذلك ، واستعمال واستغلال الظروف الشائعة في تلك الفترة مكنته من مجابهة قوات السلطة المغربية الشرعية مدة زادت على السنتين [1] .

ثانيا : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية :

وبالنسبة للمجال الاقتصادي يمكن القول بأن انفتاح المغرب تحت عوامل كثيرة أمام التنافس الرأسمالي الأوربي قد عاد عليه بالكارثة ،وتحول من بلد مصدر للحبوب والأصواف وغيرها من المنتجات إلى مستورد لها وزاد الوضع سواءا إثر أزمة الجفاف التي ضربت الفلاحة بين عامي 1878 و 1884 خاصة أنها كانت معاشية وضعيفة ، وظلت تعاني من ارتفاع الضرائب عليها [2].

ومن العسير على شخص مثل ابن زيدان عاصر الفترة أن يقول إن أحوال الأمن كانت مستقرة استقرارا كليا في نقط أخرى من شمال المغرب ، قريبا من طنجة على الخصوص ، ومن جنوب البلاد ، كان البلد يعني من عسيرة جعلته يغوص في وحل القروض الأجنبية الكثيرة ، مع ما اشتملت عليه من حيف ومغالطة شديدين ، ومع ما استدعته من تنامي الامتيازات الأجنبية وتأثير سلبي على التجارة المحلية والاقتصاد الوطني الضعيف البنية مما هو معروف مشهور ، ثم عرف المغرب منذ ثمانينات القرن الماضي ، ظهور فئات من المواطنين المغاربة تجارا وسماسرة ومستخدمين صغار لدى التجار الأجانب المقيمين في المرافئ المغربية أو المتعاملين معهم خارج المغرب في بعض الأحيان هذه الفئات أعلنت احتماءها بإحدى الدول الأجنبية فهم قد أصبحوا ، بموجب معاهدات واتفاقيات معقدة واهية معا ، جماعة المحميين أو حملة الباصبور أي جواز السفر الذي يمكنهم من التنقل خارج المغرب والدخول إلى البلد من أوربا الذي هم من محمييه [3].

1 – سعيد بن سعيد العلوي ، مؤرخ المملكة المغربية ، المرجع السابق : ص 262.

2– محمد العربي معريش ، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول ، المرجع السابق ، ص: 139.

3– سعيد بن سعيد العلوي ، المرجع السابق ، ص : 262.

وهذا ما أثر سلبا على خزينة الدولة وكانت الحماية القنصلية بمثابة الاستنزاف الكامل لهذه الخزينة ، وذلك لما كان لهؤلاء المحميين من امتيازات خصوصا ما تعلق بالجانب الاقتصادي والمالي الذي كان يمنح لهم .

ولم يتمكن المحميون من الإفلات من سلطان الدولة المركزية فحسب بل إنهم كانوا حملة كثير من القيم والعادات الجديدة على المجتمع المغربي المسلم فضلا عن تشيدهم ، في العاصمة فاس خاصة ، لكثير من القصور والدور الفاخرة وسلوكهم سبيل التبذير والإسراف في النفقات وهذه المسألة الأخيرة وحدها خلقت بالمقابل ردة فعل إصلاحية وأخرى انطوائية محافظة هي الغالبة تدعوا إلى منابذة الطوائف المحلية وإعلانهم جسما غريبا عن المجتمع الإسلامي ، هيمنت في الأوساط العلمية والثقافية التي خالطها ابن زيدان في فاس وانفعل بها سلبا وإيجابا كذلك [1] .

أما الوضع الاجتماعي فقد اكتسح وباء الطاعون المغرب مابين سنتي 1818م -1820م والذي كان أن يفضي 'لى الفناء ، وكذلك ظهر وباء الكوليرا سنتي 1834م- 1835م وتجدد ظهورها في سنوات 1851م و 1896م على فترات متعاقبة بعد أن كانت الأوبئة تنتشر عن الطريق القاري عبر الحدود المغربية الجزائرية وعن الطريق البحري الذي ازدادت خطورته منذ أن بدأ الحجاج المغاربة يعودون من البقاع المقدسة على متن السفن التجارية [2].

وأدى ظهور هذا الداء إلى تعطيل الأسواق وقلة الحركة وألزم التجار بيوتهم خوفا من انتشار هذا الوباء ، وكذلك ظهور الجراد بسبب الجفاف مما أدى إلى انهيار المحاصيل وتراجعها وارتفاع الأسعار ، وبالتالي حدث نقص كبير في السكان على الصعيد الديمغرافي وهذا الاختلال أدى إلى سوء الحياة التجارية [3].

1- سعيد بن سعيد العلوي ، مؤرخ المملكة المغربية ، المرجع السابق ،ص:262.
2- محمد أمين البزاز ، الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19م، الرباط ، جامعة محمد للنشر ،1983 ، ص:234.
3- نفسه: 235.

الأوضاع الثقافية :

بعد ما عاثته سلطات الحماية من تدنيس لكل المراكز الثقافية والحد دور المساجد والزوايا في النشاط الثقافي وبناء الفرد المغربي صورة تليق به ، وعدم الانساخ عن الهوية والثقافة والتاريخ المغربي ، وقد قامت سلطات الحماية بإدخال نماذج جديدة من الاصلاحات التعليمية خصوصا التعليم المعاصر بدل التعليم التقليدي واستبداله بمناهج فرنسية غربية ليتم القضاء على اللغة والهوية التي امتاز بها المغرب منذ عصور سبقت الحماية.

وكان مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لا يمتلك نظاما ثقافيا وتعليميا ، وذلك لغياب المدارس والمناهج والإستراتيجية عن منظومته الشكلية التي ظفرت بصفة منظومة لمجرد تسهيل الدراسة وتحديدها لا أكثر .

وكان التعليم التقليدي هو الغالب واقتصر على المساجد والكاتيب والزوايا والتعليم القرآني ، وقد أشار كثير من الكتاب إلى ضعف مناهج التعليم ، كما تفاقم إهمال العلوم الأخرى كالتاريخ والأدب والحساب والعلوم التجريبية وغيرها .

وبما أن عبد الرحمان بن زيدان ، بحكم موقعه الأسري أساسا وصلته بالقصر الملكي التي جعلته قريبا من الملك الضعيف الحيلة المولى عبد العزيز المحاط بأجواء الدسائس والمؤامرات والمحابة بمراقبة استعمارية خفية وقوية معا ، قد كان في موقع يمكنه معرفة العديد من الأمور القوية في التكييف الشديد لأحوال المغرب السياسية والاقتصادية والدفع به نحو الوقوع في براثن الحماية ، مثلما أن ذلك الموقع كان يخلف في نفسه المرارة والأسى ما لم يكن يعرفه غيره من العلماء والصفوة المتعلمة [1].

1- مصطفى الشابي ، عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا سياسيا ،الرباط ،كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة محمد الخامس ، العدد :11 ،ص: 136.

ثم إن من الجلي كذلك أن شهوده مظاهر تشي بوجود دولة عريقة تضرب في التاريخ بجذور بعيدة وهذا من جهة أولى ، وتوافره على أدلة من الوثائق والمستندات الغزيرة مما أمكنه أن يستفيد من العدم والضياع ومما يبين عن أسباب من "العز والصولة " سواء من حيث هياكل تلك الدولة وبناؤها أو من حين "علاقاتها السياسية "مع غيرها من دول العالم ، مع هذه التي تحدق بها اليوم حدق بها اليوم خطرا داهما يتهددها في وحدتها بل وفي كيانها وهذا من جهة ثانية ، أضف إلى ذلك ما يراه ويلمسه من بسط ظلام الحماية على البلد الذي عرف ، في ظل الحسن الأول وفي عهد ابنه محمد الرابع من قبله ، كيف يستفيد من تناقضات القوى الامبريالية وسعى إلى إحداث إصلاحات لا يبدوا أن البلد كان مهيأ (من حيث الذهنية ومن حيث التركيبة الاجتماعية ، ومن حيث البنيات الإدارية والاقتصادية) لقبولها وهذا من جهة ثالثة [1].

لاشك أن هذه المعطيات الكبرى الثلاث مجتمعة ،فضلا عما كان يتصل بالمكونات النفسية والفكرية لابن زيدان ، كلها عوامل وأسباب تلقي على الكتابة الزيدانية (مضامينها وموجهاتها) أضواء ثقافية تساعد الباحث على التحليل والفهم وتنير للقارئ سبل ولوج عالمها الفسيح ، والفحص المتأني لمؤلفات النقيب المؤرخ ، يؤدي إلى استخلاص موجهات أساسية كانت فعلا تقود ابن زيدان وتوجه قلمه في الأغلب من كتاباته ، ما كان كتاب انتهى فيه من التركيب والحياكة والتأليف إلى حال من الصياغة النهائية ، وما كان عناصر أولية وممهدات لعمل طويل النفس ، فهو إشارات وتنبيهات وتقاييد.[2]

وقد عاصر عبد الرحمان بن زيدان هاته الأحداث وكان مساهما فيها ، كونه كان قريب من نظام الحكم وخصوصا انتمائه إلى الأسرة العلوية ما جعله يخصها بمؤلفات عديدة ، تحتوي على مجريات الفترة التي عاش فيها .

1- سعيد بنسعيد العلوي ، مؤرخ المملكة المغربية ، المرجع السابق ،ص : 263.

2- مصطفى الشابي ، عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا سياسيا ، المرجع السابق، ص: 137.

رابعا: واقع الكتابة التاريخية بالمغرب الأقصى في عهد الدولة العلوية

عرف عهد الدولة العلوية تأليفا في التاريخ أغزر وأوسع عبر المراحل التي سبقت هذه الفترة ، وذلك من خلال أنماط جديدة ، فقد كان التأليف في التاريخ السياسي للدولة العلوية إما كجزء من تأليف عام ، كما عند الافراني في "نزهة الحادي " والزياني في "الترجمان المعرب" والناصري في "الاستقصا" ، وإما في تآليف مخصصة لهذه الدولة ، كما في "الأنوار السنية" لأبي العباس المدغري و"البستان الظريف " للزياني و"تاريخ الدولة السعيدة " للضعيف و" الدر المنضد " للكردودي "والجيش العرمرم " لأكنسوس ، وإما عبر إفراد السلاطين بتواريخ كما في " روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف" لليفرني وفي "الروضة السليمانية " وفي "التاج والإكليل" وفي "عقد الجمان " وثلاثتها للزياني و" الابتسام عن دولة عبد الرحمان بن هشام " لمؤلف مجهول ،وفي المصنفات التي خصصت لعهد السلطان مولاي الحسن على أيدي الكثيرين من أمثال السلمي والسلاوي واللجائي والسباعي [1].

كما تجدر الإشارة إلى أن الكتابة التاريخية التقليدية في خلال فترة الحماية بين عامي 1912و1956 م تميزت بانفتاح المؤرخين التقليدين على المصادر الأوربية واحتكاكهم بباحثي نظام الحماية ، فعرفت بذلك تطورا نسبيا ، وهذا ما ينطبق على ابن زيدان وعند محمد داود والمختار السوسي اللذين حملت كتابتهما سمة وطنية واضحة بحكم انتمائها إلى الحركة الوطنية ، وبدأت تتخلص من البعد الأسطوري لكن على الرغم من ذلك ، استمر في ثناياها كثير من خصائص الكتابة التاريخية التقليدية [2].

1- عباس الجراري وسعيد بنسعيد العلوي وأحمد توفيق ، عبد الرحمان بن زيدان ،أعلام المغرب، مطبعة إديال ، 1998، ص: 101.

2- ليفي بروفنصال ،مؤرخو الشرفاء، تعريب :عبد القادر الخلادي ،سلسلة تاريخ المغرب 5،الرباط ،دار المغرب لتأليف والترجمة والنشر ،1977، ص:133.

ركزت كتب التراجم والأنساب والمناقب على التأريخ للنخب العلمية والاجتماعية والدينية ، من علماء وشرفاء وأولياء...وتضمنت استطرادات تتعلق بالحياة اليومية والأوضاع الاجتماعية والثقافية والدينية ، كان الهدف من وراءها تمييز ذوي الشرف الصريح من أدعيائه ، وقد رفعت من شأن الأشراف ووضعتهم أحيانا في مستوى الأسطورة [1].

أما التاريخ على أسلوب التراجم فقد ازدهر وتطلبته حاجة الفئات الاجتماعية المتطلعة إلى مكانة اجتماعية وإلى إيجاد مكان لائق بها ، وهكذا تعدد التأليف بالعهد العلوي في الأشراف وأنسابهم ورجالهم وفي الصوفية والصلحاء والعلماء ، ووضعت فيهم فهارس وأسانيد ،و تميز تأليفان أحدهما هو " نشر المثاني " للقادري الذي ضم عددا كبيرا من التراجم ، وتميز بجمعه بين العلماء والصلحاء والرؤساء ، واتباع ذلك بوفيات كل سنة بحوليات ذات طابع سياسي واجتماعي وعمراني كما ضم هذا الكتاب استطرادات في ثنايا التراجم ، أخبارا تهم التاريخ السياسي والفكري والاجتماعي [2].

أما التأليف الثاني المتميز فهو " سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس" لمحمد بن جعفر الكتاني ، ويعتبر هذا التأليف أكبر مصدر لتاريخ رجال فاس في عصره ولم يدون قبله ولا بعده ما يوازيه في وضعه ، وهو كما يدل عليه عنوانه مقصور على تراجم الصلحاء المدفونين بمدينة فاس ، مرتبين على حسب مدافنهم في أحياء المدينة ، وتضم تراجم السلوة مادة للتاريخ الديني والفكري ، كما لا تخلو من معلومات عن الجوانب السياسية والاجتماعية[3].

وكان الاهتمام بهذا الكم من التأليف المغربي خصوصا في التاريخ هو بمثابة اهتمام بالجوانب السياسية والدينية والعلمية ، ومن خلاله عالج مواضيع تطرق فيها هذا التاريخ بالرؤساء والعلماء والصلحاء ، وذلك عبر أساليب التأريخ للدول والملوك أو الترجمة للمشاهير من غير الرؤساء ، وكانت

1- نفسه ، ص : 54.

2- نفسه ، ص : 102.

3 – مصطفى الشابي ،النخبة المخزنية ، المرجع السابق ص، ص: 27،26.

خلفية التأليف بين التراجم في كثير من الأحيان مدينة من المدن بعينها ، بحكم الانتماء إليها مولدا أو نشأة أو زيارة أو مدفنا ، فالحوليات تستند إلى الترتيب الزمني سواء تعلقت بوقائع في إطار حكم سلطان معين أو كانت متفرقة المواضيع ، والتراجم قابلة للأنماط من الترتيب [1].

وكان المؤرخين منحازين لفئة أو طائفة أو نسب لصاحب نعمة ، ويظهر من ممارسته للكتابة التاريخية رغبة فيها وولعا بها ، وكان الحس التاريخي بمعناه السياسي حاضرا بشكل ما عند بعضهم من أمثال الزياني والناصري والسلاوي ، وقد ارتبطت إمكانية التأليف إلى جانب الإمكانيات العلمية أو بحكم الموقع من الدولة أو من الأحداث الجارية في وقت معين أو من فئة اجتماعية فاعلة كالأشراف والصوفية والعلماء، يضاف إلى ذلك التوفر على قدر من المصادر وخزانات غنية بالكتب تستعمل في اتجاه معين ، أو جمع الأخبار من طرق مباشرة بالاستناد إلى المشاهدة أو الرواية [2].

وقد تميز الناصري في "الاستقصا" بالجمع بين عدد من هذه الحوافز والإمكانات وزاد عليها بشيء جديد وهو اللجوء إلى الاستقاء من مصادر أجنبية عن طريق الترجمة .

كل هذه النماذج باهتماماتها وتنوع مشاربها ومادتها شكلت خلفية كتابة عبد الرحمان بن زيدان ، وقد عرفها كلها وتملك نصوصها ، وكان عليه أن ينسج على منوالها أو يركب من جوانب عديدة منها نمطا جديدا أو يضيف إليها بحسب الإمكانيات المتوفرة في بيئته[3].

وهذا ما جعل عبد الرحمان بن زيدان يخوض غمار حركة التأليف ويقبل عليها مباشرة ، وخصوصا كتابة تاريخ المغرب على العهد العلوي الذي كان له فيه مساهمة كبيرة خصت هذه الفترة بمؤلفات شملت عدة جوانب منها السياسية والدينية و حتى العلمية ، كلها صبت وعاء الكتابة التاريخية في الفترة المعاصرة .

1- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص ،ص:102،103.

2- سعيد بنسعيد العلوي ، من مكنونات الخزانة المغربية المعاصرة ، الرباط ، جمعية المؤرخين ، مج: التاريخ العربي ، ع: التاسع والأربعون ، 2009م، ص: 260.

3- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص: 104.

الفصل الأول : عبد الرحمان بن زيدان النشأة والتكوين

المبحث الأول : التعريف بعبد الرحمان ابن زيدان

المبحث الثاني : النشاط العلمي لعبد الرحمان بن زيدان

شهد مغرب القرن التاسع عشر ظهور عدة أقلام كتبت تاريخ تلك الحقبة ، وكانت هاته الأقلام تنتمي إلى الأسرة العلوية الحاكمة آنذاك ، وكان من بين هؤلاء المؤرخين عبد الرحمان بن زيدان الذي يلقب بمؤرخ الدولة العلوية ، الذي نشأ في كنف العلم وكانت رعايته العلمية قد تميزت بطلب العلم والخوض في غمار المعارف ، وقد خصص عدة مؤلفات لإبراز نظم الحكم وأجهزته وأنماط التدبير السياسي والإداري والمالي والعسكري لدى الدولة العلوية .

المبحث الأول : التعريف بعبد الرحمان بن زيدان :

أولا : المولد والنشأة

هو عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان بن علي بن محمد عبد الملك بن زيدان بن السلطان إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني العلوي[1] ، وهو يتصل بالسلطان الأخير أي السلطان إسماعيل ، الذي يعد والد المترجم له أحد أحفاده ، كما أن والدته هي حفيدة السلطان عبد الرحمان بن هشام ، ويشكل ذلك مصدر تسميته ب "مولاي الكبير" انسجاما مع تقاليد البيت العلوي [2].

ولد عبد الرحمان بن زيدان سنة1295هـ/ 1878م بقصر المحنشة [3]،وهو أحد المرافق الكبرى في القصر الملكي بالعاصمة الإسماعيلية مكناس ، وفي هذا القصر كانت طفولته الأولى حيث تلقى التربية التي كان الأمراء جميعا يتلقونها على الكيفية التي يذكرها ابن زيدان في كتابه "العز والصولة" في نظام الدولة إذ يتحدث عن الحياة اليومية في القصر الملكي ويبين كيف كانت تربية الأمراء والنظام الذي كانوا يخضعون له في تلك التنشئة حيث كان الأمراء الصغار يعيشون حياة مشتركة يمرحون

1- خير الدين الزركلي ، الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، بيروت :دار العلم للملايين ، ط1، 2002، ص:335.

2 - حسن الوزاني ، في تحقيقه لكتاب "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين" لعبد الرحمان بن زيدان .المملكة المغربية : منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ج:1 ،ص:21.

3 - عبد اللطيف الشاذلي ،في تحقيقه لكتاب" العلائق السياسية للدولة العلوية" لعبد الرحمان بن زيدان : الرباط ، المطبعة الملكية ، 1999م، ص:6.

ويلعبون فيها قبل أن يتم التفريق بين الإناث والذكور مع بلوغهم سن السابعة أو مجاوزتها بقليل فلا يبقى داخل القصر الملكي ذاته سوى الإناث، أما الأطفال الذكور فلا يحق لهم الدخول إلى القصر إلا في أوقات محددة من الأسبوع " فإذا بلغ الطفل السابعة أو العاشرة من عمره فإنه يحجر عن ولوج داخل القصر، ويفرق بينه وبين إخوانه وأخواته ولو كانوا من أعز أبناء السلطان ، وتعين لهم محال يسكنون بها..."[1].

ومن الطبيعي أن عبد الرحمان بن زيدان قد خضع بدوره لهذا النظام من التربية، فهو يذكر أنه كان لا يلج ردهات القصر الملكي إلا في وقت معلوم من الأسبوع بقوله: " وكان اليوم المعد لي لصلة رحم أهلي بقصر المحنشة يوم الجمعة بالمحل المعروف الوسعة... ويضيف أيضا " ...لم يزل جاريا على ما ذكر بانتظام إلى أواخر الدولة العزيزية ..."[2].

وقد كان في القصر الملكي أسوة بباقي الذكور ، وأوكل أمر تحفيظ ابن زيدان القرآن الكريم إلى فقيه مؤدب بأمر من السلطان الحسن الأول وبإشراف مباشر منه كلما حل بالعاصمة الإسماعيلية مكناس ؛ ويضيف ابن زيدان قائلا " وقد ختمت القرآن الكريم أيام السلطان الحسن فذهبت لجلالته بلوحي أطلب من علاه الختمة[3] ، ...و كان لوحي مكتوبا بخط مؤدبي من جهتيه ،فأخذ اللوح مني وقرأه ثم سألني عن الخط لمن هو ؟ فقلت الفقيه فقال هذا غش لا ينبغي فليترككم تكتبون ألواحكم بيدكم ،وسألومه ، ونفذ لي لدى حاجبه أحمد بن موسى مايدفع للفقيه في الختمة غاب عني قدره [4]".

1- عبد الرحمان بن زيدان ، العز والصولة في نظام الدولة ، تح:عبد الوهاب بن منصور .الرباط : المطبعة الملكية ، 1962،ج:1، ص،ص: 73،74.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، العز والصولة ...، المصدرالسابق ، ص :74.

3- الختمة –بفتح الخاء- وتسكين التاء –هي الجائزة التي تدفع للمدرر الذي يقوم بتحفيظ الطفل القرآن الكريم – تدفع له بعد قدرة الطفل على استظهار الكتاب الكريم. ينظر :عباس الجراري ، عبد الرحمان بن زيدان ،المرجع السابق ،ص20.

4- عبد الرحمان بن زيدان ، العز والصولة ...، المصدر نفسه ، ص:74.

وقد كان عبد الرحمان بن زيدان ينتمي إلى أسرة امتازت بالعلم وبحفظها للقرآن الكريم، فوالده محمد بن عبد الرحمان[1] ، وعمه عبد القادر[2] ، اللذان لقناه حفظ كتاب الله عز وجل [3] ،وتنحدر عائلة ابن زيدان من تافيلالت، وفي الربع الأخير من القرن الثامن عشر استقرت أسرته بمكناس وتقلد جده نقابة الأشراف بعد تعينه من طرف السلطان محمد بن عبد الله مابين سنتي سنة 1757-1790 فاحتفظت عائلة ابن زيدان بمنصب نقابة الأشراف إلى أن شغله عبد الرحمان بن زيدان منذ سنة 1907م حتى تاريخ وفاته سنة 1946[4].

كان عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا وشاعرا وكاتبا وأديبا ، وقد كان من أبرز المؤرخين بالمغرب خاصة في النصف الأول من القرن العشرين ، فقد كتب في تاريخ المغرب عموما ،وتاريخ الدولة العلوية على خاصة حيث كرس حياته للدفاع عنها والمنافحة على منجزاتها ،[5]

استفاد عبد الرحمان بن زيدان من مكانته العائلية والاجتماعية حيث حظي بتربية و تكوين قلما يحظى بهما الشباب من أبناء جيله ،تربية وتكوين أصيلان بمميزاتها التقليدية من دراسات قرآنية ولغوية ،كان عبد الرحمان بن زيدان في بادئ أمره مهتما بالشعر والأدب قبل أن يتحول إلى التاريخ ودراسته وجمع أثاره[6].

1- محمد بن عبد الرحمان والد عبد الرحمان بن زيدان :المتوفي في 18 من أفريل سنة 1900م

2- عبد القادر عم ابن زيدان : المتوفي سنة 1903، ينظر : مصطفى الشابي ، ابن زيدان مؤرخا سياسيا ، المرجع السابق ، ص : 135.

3- خالد طحطح و محمد بكور ، مؤرخون مغاربة في الفترة المعاصرة ، الرباط ،مجلة الأمل ، التاريخ ، الثقافة والمجتمع ، ط1 ،2017، ص: 191

4- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ،تق : عبد الهادي التازي ، الرباط ،مطبعة الوطنية ، 1929، ج:5، ص:192.

5: المرجع السابق ، ص:191.

6 – عبد الرحمان ابن زيدان ، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ،المصدر نفسه ، ج:4 ، ص:308.

ويلقب ابن زيدان من طرف ابن سودة صاحب كتاب سل النضال بالعلامة المشارك المطلع المؤرخ الشهير البحاثة المعتني الكاتب المقتدر الشاعر المجيد المكثر [1] ، وقد كان السلطان محمد بن يوسف يخاطبه بابن عمنا ومؤرخ دولتنا [2].

وعبد الرحمان ابن زيدان نظرا لتنشئته الاجتماعية وغيرها من الظروف التي توفرت له ،كان باعثا للذاكرة الوطنية وشحذ أذهان الشباب لاستكشاف أمجاد التاريخ الوطني والحياة العلمية في ما كان له من زخم وفير في ما تعلق بالتأليف سواء في الأدب والشعر والتاريخ،وغيرها من المصنفات التي خصها بعناية خاصة وفائدة داخل مكتبته الزيدانية التي كانت منبرا للعلم والعلماء خصوصا داخل البيت العلوي الذي كانت جل مؤلفاته تصب في إطار مفاخر هذه الأسرة المخزنية [3].

وعبد الرحمان بن زيدان يعتبر من بين أحد الأقلام الممهدة لنهضة المغرب الحديثة ، وأججوا جذوة الحماس في نفوس أهله فقد كان للكتب والمحاضرات التي ألفها وحاضر بها ثم طبعها أثر لا يجحد في إيقاظ الشعور القومي وبعث الحمية الوطنية[4].

وقد كان إنتاج ابن زيدان دليل على البيئة الصحيحة التي ترعرع فيها ، فالمؤلفات الأدبية والتاريخية أبانت عن ذلك ، وتعدت آفاق العاصمة الإسماعيلية لتشمل جوانب عديدة من تاريخ المغرب ،[5]

1 – عبد السلام ابن سودة ، سل النصال بأشياخ وأهل الكمال فهرس الشيوخ ، تح: محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، ص: 124.

2 –خير الدين الزركلي ، الأعلام ، المصدر السابق، ص: 401

3 –خالد طحطح ومحمد بكور : المرجع السابق ، ص: 191

4 –عبد الرحمان بن زيدان : العز والصولة في معالم نظم الدولة ، ، الرباط ، المطبعة الملكية ،مقدمة عبد الوهاب بن منصور ، ج1 1961م ، ص:(أ)

5– مصطفى الشابي ، عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا سياسيا ، مجلة العلوم الانسانية ، الرباط جامعة محمد الخامس ،العدد العاشر ، ص: 135.

ثـانيا : تعليمه

حفظ ابن زيدان القرآن الكريم كبداية في مساره التعليمي ، واستكمالا لذلك تلقى ابن زيدان أيضا المبادئ الأولية للغة العربية من قبل والده وعمه ،كما تلقى تعليما خاصا على يد ثلة من كبار علماء المدينة ، نذكر من أولئك العلماء الكبار الشيخ القاضي محمد بن عبد السلام الطاهري الذي تلقى على يديه دراسة النحو والفقه ومبادئ الأصول وبعضا من الحديث النبوي ، والفقيه الشاعر محمد بن الحسين العرائشي ، والقاضي التهامي السوسي المدعو الحداد ، والشيخ الحاج المختار بن عبد الله الوزير السابق للسلطان عبد العزيز ، ولما نال ابن زيدان من مختلف هذه المعارف الأولية لعلوم اللغة والفقه والحديث ،اكتسب ولعا بالشعر عامة ، خصوصا ما كان منه مديحا نبويا ، ليلتحق بعدها بجامعة القرويين [1].

وجلس ابن زيدان إلى سواري الكثير من علماء القرويين وحظي بالإجازة من العديد منهم ، والإجازة كما هو معروف هي اعتراف من العالم يقر بها ، بواسطة ما يمتلكه من سلطة علمية يكون بدوره قد حصل عليها من المتقدمين عليه من شيوخه المعترف لهم بطول الباع في العلم وفي مجالات منه خاصة ، بأن طالب الإجازة أو "المستجاز" قد أدرك شطرا من المعرفة يخوله أن يغدو بدوره مرجعا في الفتيا والتدريس ، كذلك حصل عبد الرحمان بن زيدان على إجازة من كبير العلماء في وقته مثل الشيخ أحمد الخياط الزكاري ،وأخرى من الشيخ المؤلف الذائع الصيت محمد ابن جعفر الكتاني صاحب كتاب "سلوة الأنفاس" وكتاب " نصيحة أهل الإسلام "والثالثة من الشيخ محمد بن قاسم القادري وغيرهم ، ومن علماء القرويين الذين عرفوا برسوخ قدمهم في معرفة الأدب العربي القديم ونبغوا بنظمهم الفقيه الشاعر أحمد بن العياشي سكيرج ، الغزير في الكتابة ، والفقيه الشاعر مولاي

1- عباس الجراري وسعيد بنسعيد العلوي وأحمد التوفيق ، عبد الرحمان بن زيدان ، أعلام المغرب ، مطبعة إيديال، 1998، ص: 20.

أحمد بن المأمون البلغيثي الذي لم يكن أقل غزارة في الكتابة ،وكانت لائحة العلماء الذين حضر عبد الرحمان بن زيدان دروسهم في القرويين تربو على العشرين عالما[1] .

كما لا يخفى على بال من أن فاس ، في المدة التي قضاها فيها ابن زيدان طالبا ، كانت لا تزال هي عاصمة المغرب السياسية والعلمية معا ، مثلما كانت مجالا لالتقاء تيارات فكرية تختلف بين الجنوح إلى والانكفاء على الذات وبين الانفعال ،مع ما كان يتسرب إليها من أفكار إصلاحية جديدة تأتي تياراتها من المشرق العربي ، ومن بعض البلاد العثمانية[2] .

وكانت فئة من التجار تنقله من مشاهدتها في البلاد الأوربية القريبة أو ما كانت معاملاتها تضطرها إليه ، كما أن كلا من السلطانين الحسن الأول ومن قبله محمد بن عبد الرحمان بن هشام قد اجتهدا في إدخال بعض الإصلاحات على النظم التعليمية والإدارية في البلاد ،وأنهما كانا يجابهان بحال من عدم القابلية للتحديث وقبول التخلي عن العادات الفكرية المتحكمة في النفوس، وجامعة القرويين كانت صدى وعكسا لتلك التيارات كلها وبيوت بعض العلماء المتنورين كانت أندية صغيرة، تقصدها نخب قليلة من الطلبة المتشوقين إلى معرفة الجديد والإطلاع على ما لم تكن أروقة الدراسة في الجامعة العتيقة تسمح به .[3]

وعندما أنهى ابن زيدان دراسته في فاس سنة 1907م ، كان قد عاش كل الحركية الفكرية الاجتماعية كما كان في أول شبابه ، شاهدا على المحاولات الإصلاحية التي اجتهد السلطان عبد العزيز ابن الحسن الأول في إحداثها دون فائدة مثلما كان شاهدا على التحولات والاضطرابات السياسية التي سبقت إعلان الحماية على المغرب في سنة 1912م[4].

1- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ،ص،ص:21-22.

2- نفسه ، ص :22.

3- سعيد بنسعيد العلوي وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، لمرجع السابق ،ص:22.

4- سعيد بنسعيد العلوي ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق،ص:23.

أصبح ابن زيدان يحمل لقب "نقيب الأشراف العلويين في مكناس وزرهون " منذ رجوعه إلى مسقط رأسه ، في الشهور الأخيرة من حكم السلطان عبد العزيز ، وقد سمح له ذلك من اتصاله الوثيق بالقصر الملكي بحكم القرابة ، ومن الاطلاع على الكثير من مجريات الأمور وحيازة العدد الهائل من الوثائق الهامة ولاشك أن هذا الاطلاع الواسع والشهود على مرحلة دقيقة حرجة من تاريخ المغرب دولة ومجتمعا وفكرا قد عمل في نفسه ردة فعل قوية ، كما كان للرحلة العلمية الحجازية لابن زيدان إلى المشرق العربي والحجاز بعد سنة من إعلان الحماية الفرنسية على المغرب[1]

لقي ابن زيدان في رحلته العلمية مجموعة من العلماء وحضر دروسهم واستجاز البعض منهم فأجازوه ، نذكر من مشاهيرهم في مصر الشيخ سليم البشري الذي اشتهر بتدريس الأدب العربي الخاصة ، والشيخ عبد الستار الهندي في مكة المكرمة ، والشيخ محمد الهاشمي في المدينة المنورة ، ومن بيروت الشيخ يوسف النباهي ومن دمشق بدر الدين الحسيني المشهور بلقب المغربي ، والشيخ عبد الباقي الأنصاري ،ومن الشيوخ العلماء الذين اجتمع بهم في تونس محمد بن يوسف المفتي الذي كان يدعي شيخ الإسلام ، وقاضي القيروان محمد العلاني والشيخ الصديق النيفر من مشاهير علماء الزيتونة [2].

وقبل التحاقه بالمغرب حضر مجلس الشيخ عبد القادر المجاوي وظل ذكر هذا الشيخ حاضرا عنده بالثناء والتقدير ، ولاشك أن مجالس هؤلاء العلماء ، وغيرهم ممن لم يرد ذكرهم لم تكن تخلو من رواج لبعض الأفكار الإصلاحية التجديدية ، وأن بعض المجالس والمنتديات في دمشق وبيروت والقاهرة كانت تشهد مخاضا فكريا في مستهل القرن العشرين مما لم يكن مألوفا في المغرب أو كان الخاصة في المغرب يتلقونه بدهشة واستغراب ونفور [3].

1- نفسه ،ص :23.

2- محمد المنوني ،مؤرخ مكناس ابن زيدان ،ضمن مجلة دعوة حق ، السنة العاشرة ، العدد الأول ،رجب 1386هـ-1966م،ص:93.

3- محمد المنوني ، مؤرخ مكناس ابن زيدان ، المرجع السابق ، ص،ص:93،99.

وعندما أدرك ابن زيدان منتصف القرن الرابع ، وكان بصدد الإقبال على تدشين مرحلة طويلة من الكتابة والجمع ونظم القصائد الطويلة ، وقد امتدت حتى أيامه الأخيرة من عمره ، كان قد استجمع لذلك عناصر متنوعة ومتفاعلة كافية لخوض غمار التأليف والتدوين ،بيد أنه لابد للقارئ من وقفة عندما يعتبر عاملا قويا وأثرا فاعلا في ذلك كله ،وهو ما كان مؤرخ الدولة العلوية يتوفر عليه من خزانة ضخمة غنية وفريدة من نوعها في تاريخ الخزانات المغربية [1].

ثالثا: مكتبته ومجالسه

1- مكتبته

تعلق ابن زيدان بالكتب وحرص على البحث عن كل ماهو نفيس ونادر ، وهذا ما جعله يبذل كل الجهد في سبيل جمع تلك الكتب وغيرها في خزانته أو مكتبته التي عرفت بالخزانة الزيدانية وحسب ما يذكر سعيد بن سعيد العلوي نقلا عن ما كتبه ابن زيدان في مقدمة سجل المكتبة الزيدانية بمكناس " فإن الله جلت قدرته وعظمت منته وهب لي ، والحمد لله على نعمه الدارة ، رغبة في اقتناء الكتب حارة منذ نعومة أظفاري وعنفوان شبابي وسلوكي سبيل المنافسة في طلب العلم لأقراني وأترابي ...فلم أزل أبذل في البحث عنها نفائس المواقيت وأنفق في التحصيل عليها ما هو أغلى من اليواقيت وأعاني مشاق الأسفار بالدفاتر والأسفار حتى اجتمع لدي العدد الكثير من الكتب القيمة المؤلفة في كل علم نافع وفن أثير وأنشأت لها خزانة هي أحب إلي من كل بستان ظريف وأعز عندي من كل جليس لطيف له في الفؤاد تأمير وتصريف "[2].

وقد اشتملت الخزانة أو المكتبة الزيدانية على عدد من الكتب المطبوعة والمخطوطة خاصة ،مما جعل كل الذين شاهدوها أو اطلعوا على محتوياتها ، ممن لهم معرفة بالمكتبة المغربية الخاصة ، يجمعون

1- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ،ص :25.

2- مقدمة سجل المكتبة الزيدانية ، ينظر : سعيد بن سعيد العلوي وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:25.

على القول بأنها كانت ضخمة هائلة ، والأستاذ محمد المنوني هو الأكثر إطلاعا على الخزانات المغربية يقول عن المكتبة الزيدانية " ولا أذهب بعيدا إذا قلت إنها فيما يرجع للتاريخ العلوي وتاريخ مكناس الأولى من نوعها لما اشتملت عليه من الغرائب والنفائس في هذه المواضيع ، ففيها ما لا يوجد في غيرها من مراجع التاريخ العلوي مجموعات كثيرة ونادرة من ظهائر مختلف الملوك العلويين وفيها الكثير الطيب من مؤلفات أعلام مكناس ، هذا زيادة على مخطوطاتها العديدة في الأدب ومختلف العلوم الأخرى وعلى ما بها من مصاحف وكتب حديثة فائقة التنميق ومؤلفات كثيرة مكتوبة بخط أصحابها ، والعديد من مجموعات الكتب المطبوعة بالعربية وغير العربية مثل تاريخ دوكاستري وغيره".[1]

ومن الكتب كتاب "أعيان المغرب " والذي أراد كتابه الفرنسيون ،في عهد الحماية أن يجعلوا منه ديوانا لمختلف مشاهير الشخصيات المغربية من الحكام والعلماء والأدباء في مختلف مناطق المغرب يصف صاحب المكتبة أو الخزانة بأنه مفتون بالكتب وأمكنه أن يجمع عددا من المخطوطات والكتب النادرة فكان بذلك صاحب واحدة من أغنى الخزانات الخاصة "[2].

على أن غنى المكتبة الزيدانية لا يكمن في اشتمالها على مخطوطات قديمة ، مكتوبة بخط مؤلفيها فحسب ، وعلى مخطوطات فريدة لا تعرف لها نسخ أخرى ،في غيرها من الخزانات والمكتبات الخاصة فقط ،ولا العدد المذهل من الكتب المطبوعة النادرة بل إن غناها يكمن في أشياء أخرى ، من ذلك اشتمالها على مصاحف كريمة خطت على رق الغزال ، ومن ذلك توافرها على ثروة ضخمة ، لا تقدر بثمن ، من الوثائق الرسمية مثل المعاهدات والاتفاقيات الدولية بين المغرب وغيره من البلدان الأوربية والإسلامية ومثل الظهائر والمكاتبات المخزنية والرسائل الخاصة ، فضلا عن تقاييد العلماء ،ومدوناتهم وغيرها ، ثم إن المكتبة الزيدانية حسبما يذكر أحد العلماء المغاربة الذي شاهد المكتبة في سنة 1936 ولقائه لابن زيدان ومشاهدة مكنونات الخزانة وذكر قائلا " ومن الذخائر رمح مولاي

1- محمد المنوني ، مؤرخ مكناس ابن زيدان ، المرجع السابق ،ص:96.

2- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ،ص :29.

إدريس بن عبد الله فاتح المغرب ، وهو وحده تشد إليه الرحال لرؤيته وتتسابق رجال الإسلام لمشاهدته ، وإذ من الله على الكاتب الجراري (عبد الله الجراري) وحباه بهذه النعمة رأى هذا الرمح الخالد والأثر الحربي الجليل مكتوب على نصله وهذا رمح إدريس بن عبد الله الفاتح ويقدر بنحو متر وثمانين"[1] .

"ومن إعتناء النقيب الكريم أن اتخذ لهذا الرمح العتيق غمدا أنيقا من خشب على صورة صندوق يتناسب وطوله وعرضه قصد حفظه "، ومن مكنونات الخزانة أو المكتبة الزيدانية وجود نفائس فريدة مثل أطلس الجغرافية والفلك الذي ألفه أحمد شهبون في نهاية القرن الماضي ، وأحمد شهبون كان من بين أعضاء البعثة العلمية التي وجهها الحسن الأول إلى أوربا ، وعن مصنف ابن شهبون وخريطته يقول ابن زيدان عنه " ....وهي خير ما احتفظ به بالمكتبة الزيدانية من آثار المغاربة الذي أضاع تراجمهم أهل زمانهم وأي فخر أضاعوا ،يخيل للناظر في هذه الخريطة لأول وهلة أنها من أعمال المطابع العصرية ، وماهي بذلك وإنما اللباقة الفنية قد أبرزتها في صورة مستكملة رائعة وقد أضاف إليها واضعها معلومات في الجغرافيا والفلك وتقسيم أجناس البشر بأيجاز يدل على مقدرة وواسع إطلاع..."[2].

ثم إن المكتبة الزيدانية تتسم بصفة انتظام الكتب والمصنفات والوثائق على صفة من الترتيب والجمال معا ، وفي هذا الصدد يذكر عبد الله الجراري الذي زار المكتبة أو الخزانة ورأى ما تقر عينه واندهش بما شاهده " دهشت من عظمتها ولطيف نظامها وطفقت وقته أتصفح في فهرستها النظامي الذي لا تكاد تميزه عن برامج المكاتب العلمية الجديدة للحكومة وغيرها " ويضيف قائلا "

1- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:30.

2- عبد الرحمان ابن زيدان ، العز والصولة ، المصدر السابق ،ج:2، ص،ص:161،162.

ومما يزيد رونق هذه المكتبة اعتناء مؤسسها بتفسير دفاترها بحيث يقل أن ترى فيها كتابا لا يكسوه سفر جميل "[1].

وهذا دل على شيء إنما يدل على أن ابن زيدان كان يعتني بالمكتبة وذلك من خلال ترتيب محفوظاتها ، كتبا ، ومخطوطات ،وتقاييد ،ووثائق ، وصورا ، وظهائر، وقطعا فنية نادرة ، والمكتبة الزيدانية عبرت عن شخصية ابن زيدان من حيث الاعتناء بحضور الجمال والأناقة وبغنى المكتبة من حيث تنوع مواردها ومصادرها ،فقد بلغ عدد المصنفات التي ضمها سجل المكتبة الزيدانية بمكناس أربعة ألف عنوان ، ومن ذلك ما يذكره صاحب المكتبة أو الخزانة يقول ابن زيدان " بذلت في التحصيل عليها كل نفيس وغال ، ووالیت الأسفار وسامرت الأسفار نابذا ورائي ظهريا حب الرئاسة واقتناء الدور وتشييد القصور وشراء البلادات وغرس الجنات غير مفكر فيما يخلف للبنين والبنات إذ الرزق بيد الله ومن تولاه كفاه ...وإذا خلصت النية ذللت الصعاب وبلغ المرء كل أمنية ، ومن جد وجد ، وقد حصلت ولله الحمد على الضالة المنشودة والغاية المقصودة وحصل لدي ما تعلقت الهمة بتحصيله ما لم يتفق لأحد من الغابرين ولا المعاصرين ، والله يرزق من يشاء بغير حساب وهو الموفق والهادي للصواب "[2].

وكان سعي عبد الرحمان بن زيدان وحبه لاقتناء الكتب يبذل من أجله كل سبيل ، وبذل الأموال في جلب هذه الكتب عوضا عن صرف المال في اقتناء الدور وتشيد القصور وشراء البلادات وغرس الجنات ، ولم تكن المكتبة الزيدانية هوى صاحبها وعشقه ،بل كان المجلس الزيداني الذي كان يدور في فلكه الأحاديث ومطارحات ومساجلات ، وكيف كان الأدباء والفقهاء والرواد يشدون الركاب والرحال إليه من جميع أنحاء المغرب [3].

1- عباس الجراري وآخرون ،عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ،ص:31.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، العز والصولة في معالم نظم الدولة ، المصدر السابق ، ج:1، ص:7.

3- سعيد بنسعيد العلوي وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:36.

2- مجالسه

كل الذين يتحدثون عن ابن زيدان وكل الذين يتحدثون عنه، ممن عاشروه مدة من الزمن ،وقصدوا بيته إما زوارا أو حلوا ضيوفا ، يجمعون على أن عبد الرحمان بن زيدان كان يمتاز بخصال الكرم ، ومن ذلك ما يذكره عبد السلام ابن سودة في ترجمة لابن زيدان بقوله " منزله كان ملقى ومجمع الجميع وخصوصا العلماء والطلبة لأنه كان كريم المائدة والفائدة مع بشاشة وتواضع "[1].

وقد شكلت مجالس ابن زيدان فضاء لالتقاء شعراء وأدباء وعلماء وقضاة فاس ومكناس وغيرهم من مدن ومناطق المغرب ، ومنهم على سبيل المثال محمد الغالي السنتيسي وعبد الله بن محمد العلوي والتهامي بن عبد القادر الحداد ومحمد بن أحمد الزرهوني وعبد القادر بن أحمد العرائشي ومحمد بن الحسين بن عبد القادر العرائشي وعبد الله القباح ومحمد بوجندار وغيرهم [2].

كما منحت هذه المجالس هامشا لتواصل بين المشاركين في هذه المجالس من الأدباء والعلماء المغاربة وبين ضيوف ابن زيدان من عدد من البلدان العربية والإسلامية ،وكان انعقاد المجالس المنتظم فرصة لتبادل الآراء والأفكار وقراءة جديد الشعراء وقد وجد بعضه الطريق إلى الطبع ، كما هو الأمر بالنسبة إلى كتاب " عواطف شعراء المغرب وأدبائه نحو النقيب ابن زيدان بمكناس"[3].

وتميزت المجالس الزيدانية بجدية المطارحات والنقاشات ، وهو ما تنقله شهادات عدد من المواظبين عليها ، وأيضا بحسن الضيافة والكرم ،وهو ما يعكسه بشكل عام ما قاله الشاعر عبد الله القباح : إني لأعجب كيف تكرم كل من ....وافى ولا تخشى من الإفلاس

1- عبد السلام بن سودة ،سل النضال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال ، في موسوعة أعلام المغرب ، تح:محمد حجي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ،ج:9 ، 1996،ص: 126.

2- حسن الوزاني في تحقيقه لكتاب ،" معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين ، لعبد الرحمان بن زيدان ، ج:1، ص 24.

3- مصطفى الشاذلي في تحقيقه ، " العلائق السياسية للدولة العلوية لعبد الرحمان بن زيدان العلوي ، ص:7.

وهذا الشاعر يقصد ما كان من خصال ابن زيدان وما تميز به ، وشكلت المجالس الزيدانية ، بشكل عام بالإضافة إلى غيرها من مجالس العلماء والأدباء خصوصا خلال المنتصف الأول من القرن العشرين ، فضاء لتبلور أفكار جيل جديد سعى ، عبرها وعبر استثمار ما توفر من إمكانات التداول الجديدة كالصحافة والمجلات ، إلى تحقيق اختلافه عن جيل العلماء المحافظ ، الذي يعتمد في تصريف أفكاره على بعض المؤسسات التعليمية التقليدية وعلى الزوايا [1].

وتنوعت المجالس الزيدانية فقد كانت مزيجا من الشعر والفقه والدعابة والخشوع ، والميل إلى التجريب وإخضاع الرأي للمناقشة والاختبار ،وفي وفرتها وتعددها ، بل وفي تبرم صاحبها من فراغ المجلس وخلوه من معارض لرأي أو متأهب للدفاع عن فكرة أو التحضير لمؤلف أو كتاب ، وهذا كله مقرون بشخصية ابن زيدان متعددة المواهب والصفات ، والقادرة على الكتابة والعطاء في حقول متعددة فكانت لذلك مجالات متعددة كالتاريخ والأدب والفقه وتنوع موضوعاتها، وقد كان ابن زيدان ينطلق من فكرة بناء شخصية الدولة المغربية الحقة[2] .

رابعا :وفاته .

توفي عبد الرحمان بن زيدان ظهر يوم السبت 21 من ذي الحجة سنة 1365 الموافق لـ16 نوفمبر 1946 ، وتم تشيع جنازته في محفل عظيم حضر فيها أهل مكناس ورجال الوزارة المغربية على رأسهم صاحب السمو الملكي ولي العهد إذ ذاك الحسن الثاني ، إلى أن تم دفنه لمثواه الأخير داخل الضريح الاسماعيلي [3].

1- حسن الوزاني ضمن تحقيقه لكتاب "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " لعبد الرحمان بن زيدان ، ج:1، ص،ص: 25،26.

2- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:42.

3- محمد المنوني ، مؤرخ مكناس ابن زيدان ، المرجع السابق ، ص : 99.

وتوفي عبد الرحمان بن زيدان مؤرخ مكناس ونقيب الأشراف العلويين تاركا زخما كبيرا من المؤلفات والمصنفات التاريخية وغيرها من العلوم الأخرى التي اهتم بها وجمع ودون صفحاتها في كتب مازالت إلى اليوم شاهدت على عطاء صاحبها وعلمه الواسع وإطلاعه المنقطع النظير ، كانت وفاته بعد عمر ناهز الثامنة والستون سنة قضاها في طلب العلم والتحصيل والتأليف والجلوس عند أقدام العلماء والنهل من معين ما يزخرون به من علم ، وتوفي ابن زيدان وقد ترك فجوة كبيرة في ما لم يستكمله من مؤلفات بقيت في أدراج مكتبته مخطوطة لم ينفض عنها الغبار ولم تحظى بدراسة وافية ليومنا هذا .

وكانت وفاة عبد الرحمان بن زيدان بمثابة فقدان لصرح علمي ناظر من أجل تاريخ المغرب المعاصر ، رغم تدنيسه من طرف سلطات الحماية يوم ذاك ، وعمل ابن زيدان في حقل التاريخ كان متشعبا ولا يمكن أن يتيسر لأي مخلوق أن يقوم به وحده إلا إذا توفر لديه متصفح وناسخ ومقابل ومترجم وما إلى ذلك

كما حضر جنازته على غرار الوفود المغربية وسلطاتها السيد الحاج أحمد بناني الذي ألقى تأبينية في حق الفقيد عبد الرحمان بن زيدان ، ومن مجمل ما جاء في خضم التأبينية قوله أن عبد الرحمان بن زيدان تفقه منذ حداثة سنه ، فلم يكتف بأن يكون فقيها كسائر الفقهاء بل اتجه منذ بدايته اتجاها خاصا ، فرحل ونقب وجمع وبحث ونسخ ونشر ، فكان منه مؤرخا ممتازا ، رفع المنار لبلده ، وشيد بذكر عائلته الشريفة ، كما أعلا من شأن وطنه ، فأضاف بذلك مجد العلم إلى مجد الشرف ، وما أحسن العلم والشرف إذا اجتمعا ، إلا أن لكل نعمة حسودا ، فقد قال الناس عنه أنه جماع لا مؤرخ ، وأن يد الغير في مؤلفاته أكثر من يده [1].

1- محمد المنوني ، المرجع السابق ، ص :99.

ويضيف في كلمات التأبينية قائلا "... أما قولهم أنه جماع تضليل وحسد ، أن هؤلاء الحساد يوهمون أن في استطاعة المؤرخ المغربي أن يخرج لهم من يومه تاريخيا مغربيا على الأسلوب الجديد المتبع عند الأمم الناهضة ، وما دروا أن هذا النوع الجديد لهم عند الأمم الناهضة ،وما دروا أن هذا الجديد من التاريخ لا يتيسر ولا يقدر أي مؤرخ بلغ ما بلغ من التبحر والتفوق أن يؤلفه إلا إذا توفرت لديه معلومات واسعة ومتنوعة ، أين للمؤرخ المغربي ذلك ، ....إن مواد التاريخ المغربي لا تزال مدفونة في الخزائن والمكتبات الخاصة وفي دور المحفوظات الأوربية كما أنها مبعثرة في الكنائس والرسائل الخاصة وغير ذلك وهذا ما تفطن له النقيب عبد الرحمان بن زيدان فقام بتنقيبه القيم فجمع من النفائس والذخائر ما لم يتيسر جمعه لأحد قبله ، ولذا فلسنا مبالغين يضيف صاحب التأبينية إذا قلنا أن كتابه سيبقى معلمة مغربية ، يرجع إليها كل عالم وأديب وكل باحث في تاريخ المغرب ورجاله ، ولا يعادل كتب الفقيد في نفائسها وقيمتها إلا أصول تاريخ المغرب لدى كاستر ..."[1]

ويبقى عمل ابن زيدان يصب في تاريخ المغرب ، وتبقى هذه الكتابة التقليدية بصبغة متجددة تخدم مجد الدولة العلوية ومفاخرها وتشيد بقيمة ومكانة سلاطينها يوم ذاك[2] .

1- من مقتطفات التأبينية التي قيلت يوم وفاة عبد الرحمان بن زيدان من طرف السيد الحاج أحمد بناني ، ينظر محمد المنوني ، مؤرخ مكناس ابن زيدان ، المرجع السابق ،ص: 99.

2- نفس المصدر ،350

المبحث الثاني : النشاط العلمي لعبد الرحمان بن زيدان

أولا: :محاضراته ومسامراته العلمية

شكلت مهنتا التدريس والقضاء المجال الأوسع على مستوى الوضع الثقافي للعلماء والفقهاء خلال مرحلة طويلة من تاريخ المغرب ،وخلافا لهذا الوضع ولتوجهات عدد من المؤلفين من جيله له ، اختار ابن زيدان مسارا مغايرا ،بعيدا من جهة عن المهنتين السابقتين ، وعن الوظائف الإدارية والمخزنية من جهة أخرى حيث تفرغ خلال شطر كبير من حياته للتأليف ولنشاطه العلمي ومجالسه ويصف المنوني درجة انكباب ابن زيدان على التأليف ،مسجلا "بإكبار وإعظام ماكان للمترجم من الاهتمام الكامل بهذه المادة يقصد التاريخ التي انقطع لها وقضى حياته في خدمتها ، فلا تراه إلا باحثا أو مؤلفا أو مذاكرا في موضوع تاريخي ،ذلك دأبه في أكثر أحواله ،ليلا ونهارا ،سفرا وإقامة ...وقد دأب على خطته هذه إلى أن لقي ربه"[1].

بالموازاة مع ذلك عين عبد الرحمان ابن زيدان ، بعد مرحلة الدراسة بفاس ، وعودته إلى مكناس ، نقيبا للأشراف العلويين في مكناس وزرهون ، من طرف السلطان عبد العزيز ، وهو في العشرين من عمره ، وذلك استمرارا لتقليد محافظة عائلة ابن زيدان على هذا التقليد ، وقد منح هذا اللقب لابن زيدان وضعا اعتباريا كان من علاماته قوة علاقاته واتصالاته مع عدد من الملوك المغاربة والعرب والذين ذكرهم المنوني ومنهم السلطان عبد الحفيظ ومحمد الخامس وملك الحجاز عبد العزيز آل سعود وملك مصر فؤاد الأول ، زيادة على ذلك تمكن من جمع وتجميع وثائق تاريخية تشهد على قيمتها وحجم عددها مؤلفاته وخزانته [2].

1- محمد المنوني ، مؤرخ مكناس ابن زيدان مجلة دعوة حق ، العدد 1، السنة العاشرة ، نوفمبر 1966، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية ، ص:95.

2- حسن الوزاني ضمن تحقيقه لكتاب "معجم المؤلفين ..." لعبد الرحمان بن زيدان ،ج:1،ص:23.

وبالإضافة إلى ذلك ، عين ابن زيدان بعد عودته من رحلته الأولى للحج عام 1923م ، مديرا عربيا للمدرسة العسكرية بمكناس ، والغالب أن قبوله لهذا المنصب يعود إلى طابعه الشكلي والشرفي الذي لم يكن ليشغله عن اهتماماته العلمية [1].

وإذا كان ابتعاد ابن زيدان عن التدريس قد منحه وقتا أكبر للتأليف ، فإنه من الوارد أن يكون ذلك قد حرمه من وسيلة هامة لتداول أكبر لأفكاره ، ذلك أن التدريس لم يكن خلال لحظة كبداية القرن العشرين أو قبلها ، مجالا للتكوين فقط ، ولكن أيضا قناة لإعادة إنتاج أفكار الأشياخ وتكرسيها وإشاعتها عبر ما قد ينتجه المؤلفون الذين تتلمذوا عليهم ، وهو ما تعكسه نصوص معاجم الشيوخ وفهارس العلماء والإجازات وغيرها من أنواع المصنفات وخصوصا منها القائمة على التتلمذ المباشر [2].

كما كان إحجام ابن زيدان عن ممارسة التدريس وراء ارتسام مساره بالبحث المستمر عن فضاءات وقنوات أخرى لتداول أفكاره وللتواصل مع أدباء وعلماء الفترة ومتلقيه المفترضين ، وقد حرص ابن زيدان على تكريس حضوره الثقافي والعلمي من خلال انتظام ونوعية مشاركاته في عدد من اللقاءات الثقافية والعلمية داخل المغرب وخارجه وكانت أهم هذه اللقاءات ، لقاء بنادي المسامرات لقدماء التلاميذ بفاس ومكناس ، وقد انعقد سنة 1932م ،وألقى خلاله ابن زيدان محاضرة في الأخلاق [3]، تطرق فيها لمفهوم الأخلاق انطلاقا من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأدب العربي [4].

1- عبد الوهاب بن منصور، ضمن تحقيقه لكتاب،" العز والصولة في معالم نظم الدولة "،لعبد الرحمان بن زيدان ،ج:1،ص: ج.

2- عبد الله المرابط الترغي ،فهارس علماء المغرب ، منذ نشأتها إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة ،منهجيتها ،تطورها ، قيمتها العلمية ،تطوان ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ص:703.

3- طبعت هذه المحاضرة بالمطبعة الجديدة بفاس سنة 1931م في 48 صفحة ، على نفقة المولى إسماعيل بن سليمان العلوي .

4- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ،ص:246.

إضافة إلى المؤتمر السنوي المنعقد بمعهد الدروس العليا للرباط أواخر جمادى الأولى عام 1334هـ/1924م ، وشارك فيه بمحاضرة عن مبادئ علم التاريخ ، كما كان في المؤتمر المنعقد بنفس المعهد عام 1925م ،وألقى خلاله محاضرة في مبادئ التاريخ ، كما كانت له مشاركة في المؤتمر الثامن المنظم من طرف نفس المعهد والمنعقد بفاس في 17 من مارس 1933م ، وقد شارك فيه ابن زيدان بمحاضرة عن "نظام القصور الملكية ومنجزات الدولة العلوية بفاس ، من عهد المولى الرشيد إلى عهد محمد بن يوسف [1].

ومن نشاطاته العلمية لقاؤه مع تلاميذ المدرسة الحربية بمكناس سنة 1940م، وشارك فيه محاضرة عنوانها الأكياس بملخص تاريخ مكناس ، ومؤتمر الثقافة العربية بتونس ،وقد شارك فيه بمحاضرة عن حياة الوزير اليحمدي ، بالإضافة إلى هذه اللقاءات وغيرها ، واظب ابن زيدان على تقديم مسامرات عبر "راديو المغرب" ونشر بعضها فيما بعد ، في جريدة السعادة ومنها "مولاي إسماعيل والأميرة دوكانتي " والنهضة العلمية على عهد الدولة العلوية " و " التاريخ وأهميته"[2].

وقد جاءت هذه المحاضرة غيرة بعيدة عن القسم الأول من محاضرة الأكياس شبيهة بها إلا ما كان من بعض التعديلات اللفظية ، وإن ما يهم من هذه المحاضرة أنها كتبت بأسلوب خطابي يعتمد التوجه إلى المستمع بعبارات كقوله " أيها السادة المصغون الكرام ...أيها السادة الألباء ...أيها المصغون النبهاء ...أيها المصغون المطلعون ...، كما أن أسلوبه لا يخلو من عناية بتحسينه وتجميله ، في ارتكاز على الجناس وتقسيم للجمل والفواصل ،واستعانة بأبيات شعرية على حد قوله مبينا فائدة التاريخ "ان تطلبتم أيها المصغون الأماثل فائدته وجدوا وعائدته ، وجدتموه مرقيا للأفكار منورا للألباب ، ومددا قويا للاطلاع على الحوادث الأزمان والأحقاب ، فيه ترغيب وترهيب ، تهذيب

1- مصطفى الشاذلي ،ضمن تحقيقه لكتاب" العز والصولة في معالم نظم الدولة " ، لعبد الرحمان بن زيدان ، ص،ص:12-13.

2- ابن سودة المري وعبد السلام بن عبد القادر ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ،بيروت ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1997، ص: 110.

وتشذيب ، وإنذار واعتبار ، وشغل بال وتسلية ، وتخلية وتحلية ، وتحريض وتحضيض ، هو المرآة الكبرى لاستكشاف نتائج الأولين ، وآثار الأقدمين ، في العلوم والصنائع ، وبدائه الأفكار الروائع والمدرجة العظمى على أحوال القرون الشاسعة ، وأخبار الأمصار الجامعة ، ومالها وعليها من الأمور الضارة والنافعة ، بل هو غذاء الأرواح ومهب الأدواح الملقحة للأشباح ، وخزانة أخبار السلف ، المفيدة للخلف ، وسجل أعمال الرجال ، في كل مجال ، وزينة الأديب والأريب وعمدة الحاذق واللبيب ، والجهل به سبة ، والعلم به جميل المغبة ، لا يجهل فضله إلا ساقط الهمة ، أو غبي لا اهتمام له [1].

ثانيا – الرسائل المتبادلة بين ابن زيدان وبعض من علماء عصره

وكانت رسائله عديدة وقد تبادلها مع زواره وأصدقائه وبعض رجال المخزن (الحكومة) ، وغالبا ما كانت تدور حول تبادل العواطف والشكر على هدية أو استفسار أو الإجابة عنه أو ما إلى ذلك مما اعتاد الكتاب ، تناوله من أغراض عبر تحرير هذا النوع من الكتابة ، دون إغفال بعض الرسائل التي تبادلها بشأن وثيقة أو صورة يحتاجها لأحد مؤلفاته ، وكانت هذه الرسائل تبين أن ابن زيدان كان يعنى بالجانب العلمي في كتابتها بفنية في التعبير تقوم على المحسنات البديعية ، من جناس وسجع وطباق وتورية مع تضمينها قصيدة أو مقطوعة من شعره ، قد تكون في الغالب بدءا لمساجلة أو متابعة لها [2].

ويكفي من أن ابن زيدان اعتنى بهذا النوع من المراسلات العلمية ، وهذا ما تظهره احدى الرسائل التي يجيب فيها أحمد سكيرج الذي كان بعد عودته من الرحلة التي قام بها لمكناس بعث له قصيدة يعاتبه فيها على عدم الإجابة وقد كاتبه أولها

مَاْ بَالُ قَلْبِكَ بِالتِذْكَارِ قَدْ شَغُلَا وَلَاْ عَجَ الشَوْقُ فِيْهِ بِالهَوَىْ شَعُلاَ

1- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص،ص :244،245.

2- أحمد سكيرج ، الرحلة الزيدانية ، تح : محمد الراضي كنون ادريس الحسني ، ص،ص :117،120.

وقد رد ابن زيدان على هذه الرسالة بقصيدة مطلعها

قَلْبِيْ بِحُبِكُمْ وَاللهِ قَدْ شَغلُاَ وَفِيْ هَوَاكُمْ هَوَىْ مِنْ بَعْدُ مَاْ شَغُلاَ

وضمنها رسالة قال فيها " الحمد لله الذي جعل دواء العاهات والأوصاب في الرسائل الموشاة بمعاتبات الإخوان والأصحاب ، وبهج بدور وجوه الصحف بنفوس بارعات الأقلام ...أما بعد فأصبحت يتيمة دره له وأنيسة ،أعني من صار لبحر المعارف والأسرار صهيرج ، الفقيه العلامة النحرير سيدي أحمد سكيرج ،أسعد الله طالعه ،وأبقى شموس تحقيقاته في سماء الدروس طالعه ،وإن من أجل مقولاته الرائقة ، وبنات أفكاره الفائقة حديقته ذات القطوف الدانية ،والثمار اليانعة الشاهية ،المسلوك فيها طريق الحماسة في الخطاب ، المجرد من منشيها الشخص المعاتب بأحلى العتاب ...معتذرا عن الشخص الملام ، ومعارضا ما طغت فيه الأقلام..."[1].

ومن خلال هاته الرسالة يظهر عبد الرحمان ابن زيدان الاحترام لمرسل الرسالة وهوصاحب الرحلة الزيدانية أحمد سكيرج ، الذي طال جواب ابن زيدان عن تساؤله ليرد عليه ابن زيدان بهاته الرسالة ويجيبه عن مسألته ، بأسلوب لغوي راقي واضح جعل هذا الأخير يقبل الاعتذار والرسالة .

ومن بين الرسائل العلمية التي كانت بين ابن زيدان وكانت منه شخصيا لماء العينين ابن العتيق ومعها أجزاء من كتابه "إتحاف أعلام الناس " الخمسة بعد أن تعذر عليه اللقاء به أثناء زيارته لسوس ، وكان باشا تارودانت الشاعر محمد البيضاوي الشنقيطي قد أخبره بمكانته العلمية والأدبية ، وهي رسالة تدل على التواصل الثقافي والشخصي الذي كان يجمع بين سكان جنوب المغرب وشماله ، ومن مقتطفات نصها نجد "...من عبد الرحمان بن زيدان ابن فخر الملوك وجد سلاطين المغرب الأقصى ، السلطان إسماعيل الأكبر ،دفين مكناسة الزيتون ، إلى صاحب الفضيلة والنبل العلامة المحرر ، المجد ، الناثر الناظم ، الواسع الاطلاع ،مالك أزمة البيان ، الشيخ ماء العينين ابن العتيق ...أما بعد فإن

1- أحمد سكيرج ، الرحلة الزيدانية ، المصدر السابق ، ص،ص:120،211.

رابطة العلم والأدب ، ...أهديكم ما تم طبعه من تاريخنا إتحاف أعلام الناس ، وهو خمسة أجزاء ، راجيا أن لا ينبذ وراءكم ظهريا ، وأن تعيروه حصة من وقتكم الثمين ، المعمور بما يقرب من الله زلفى اقتفاء لآثار الأسلاف المتقين وتنبيهي على مازاغ به القلم ،أو نبا عنه البصر ، وضمه من خطا وخطل ،شأن البشر ..."[1] .

وقد رد ابن العتيق على هذه الرسالة التي كانت من عبد الرحمان بن زيدان، بخطاب نثري ختمه بتقريظ شعري لكتاب "إتحاف أعلام الناس " جاء في مطلعها

حُبَا بِعَبِيْرِ الآسِ نَفْسِيْ حَبِيبُهَاْ ...فَأَهْلَا بِرِيْحِ لَا أَنِيَ أَسْتَطِيْبُهَا [2] .

كانت هذه بعض من الرسائل التي كان الغرض منها التبادل العلمي بن ابن زيدان وبعض علماء عصره ممن لهم من العلم ما يستحق من النقيب الاستفسار منهم وأخذ أرائهم ، وعلى العكس من ذلك من طائفة أخرى ممن راسلت عبد الرحمان بن زيدان وطلبت رأيه في بعض المسائل الفكرية والتاريخية ، فكان رده بالرسائل التي أذنا نماذج منها سالفا .

1- ماء العينين بن العتيق ، الرحلة المعينية ، تح : محمد الظريف ، الرباط ، مؤسسة الشيخ مربيه لإحياء التراث والتبادل الثقافي ، ط: الأولى ، 1998، ص،ص: 221،222 .

2- نفسه ، ص ،ص:222،224.

ثالثا– رحلاته العلمية

ومن بين النشاطات العلمية التي دأب عليها عبد الرحمان بن زيدان هي الرحالات و الترحال ومن بينها الرحلات العلمية ، التي حرص عليها وذلك لتحقيق التواصل مع محيطه الثقافي والعلمي سواء خارج المغرب أو داخله ، وذلك عبر رحلاته الخارجية أو الداخلية ، ولم تكن أسفاره في غالب الأحيان للسياحة ، بقدر ما كانت للتعلم ولقاء شيوخ وعلماء المناطق التي يزورها وحضور مجالسهم والحصول على إجازات بعضهم [1].

وقد سافر عبد الرحمان بن زيدان سنه 1913م إلى شمال إفريقيا وبلاد الشرق العربي ، وامتدت رحلته إلى سنة 1914م ، وشملت هذه الرحلى كل من مصر ومكة والمدينة ودمشق وبيروت وتونس والجزائر ، وتميزت بطابعها العلمي وبعدد وقيمة العلماء الذين التقاهم ، ومنهم خريج الأزهر ومفتي مصر محمد بخيت المطيعي ومحمد بن إبراهيم بن علي الحميدي السمالوطي والشيخ الشرنوبي بمصر وغيرها من العلماء الذين كان لعبد الرحمان ابن زيدان حظ معهم [2] .

وقام عبد الرحمان بن زيدان برحلة ثانية سنة 1938م ، إلى المشرق العربي شملت الحجاز والمدينة المنورة ومصر ودمشق وبيروت وحماة وبعلبك ، بالإضافة إلى أدائه لمناسك الحج ، حرص ابن زيدان ، خلال رحلته التي دونها ، على الالتقاء بعدد من علماء المنطقة ، ومنهم عيدروس بن سالم العلوي الخضرمي والعالم التونسي عمر حمدان المحرسي ، وقد أجازاه بمكة ، كما اتصل ابن زيدان بعدد من الشخصيات السياسية ، كالملك عبد العزيز آل سعود والأمير شكيب أرسلان [3].

1- حسن الوزاني ، ضمن تحقيقه لكتاب "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين "، لعبد الرحمان بن زيدان ، ج:1، ص: 28.

2- محمد المنوني : مؤرخ مكناس ابن زيدان ،المرجع السابق ، ص: 94.

3- المرجع نفسه ، ص:95.

أما رحلته الخارجية الثالثة فقد خصها لفرنسا ، ودامت خمسة وخمسين يوما ، كرسها لزيارة المكتبات ومراكز المخطوطات ، وكانت هذه الرحلة خلال صيف سنة 1931، إذ يشير عبد الرحمان بن زيدان إلى هذه الرحلة من خلال ما يذكره " أنه حضر حفلا أوحفلة رسمية أقيمت للملك محمد الخامس بباريس في زيارته لها أيام معرضها الاستعماري الذي كان رئيسه ومرتب شؤونه هو المارشال ليوطي ، وذلك في أوت من سنة 1931م"[1].

وفيما يخص رحلاته الداخلية ، فيمكن التمييز داخلها بين رحلات علمية وأخرى سلطانية ، وقد حرص ابن زيدان على تدوين أغلبها ، وتعد رحلته الموسومة بزيارة تافيلالت ، من بين أحد أهم الرحلات الداخلية العلمية ، وقد كرس رحلته هذه ، التي تمت خلال سنة 1933م "لصلة رحمه واقتناء الكتب والبحث عن نوادرها ، إضافة إلى قيامه بجرد ووصف التراث المعماري الذي تزخر به المنطقة "[2].

وفي نفس السياق قام عبد الرحمان بن زيدان برحلة إلى سوس ، في عام 1935م ،وقد دونها بكراسة تعرف " رحلة إلى القطر السوسي"، ذكرها له المختار السوسي في صفحة إهداء كتابه " سوس العالمة ، ويرجع المختار السوسي لابن زيدان فضل تأليف كتابه " سوس العالمة" وقد كتب في صفحة الإهداء الذي خصصه لابن زيدان " كان سبب ابتدائي لمباحث هذا الكتاب بسبب أستاذي الجليل ... ابن زيدان ، يوم زار سوس وكتب رحلته السوسية في كراسه ، فناولنيها على أن أذيل عليها ، واستتم كل ما يتعلق بالعلوم العربية في كل أدوار التاريخ بسوس ، فلم أزل أتوسع في الموضوع حتى صار الموضوع إلى ما يراه القارئ"[3].

1-عبد الرحمان بن زيدان ، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة ، الرباط ، المطبعة الاقتصادية ، ص:142.

2- حسن الوزاني ضمن تحقيقه لكتاب "معجم طبقات المؤلفين ..."، لعبد الرحمان بن زيدان ، ص : 29.

3- محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، الدار البيضاء ، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر ،ط:2، ص 1.

أما في إطار رحلاته السلطانية ، فقد رافق عبد الرحمان بن زيدان السلطان يوسف إلى السوس ، في أوائل شهر أكتوبر سنة 1926م ، كما رافق محمد الخامس في رحلته التي شملت عددا من مناطق المغرب سنة 1941م ، وقد دون الرحلة تحت عنوان " العقود الزبرجدية في جيد الرحلة السلطانية المحمدية ، وذلك بالإضافة إلى رحلتين أخريين ،دونهما تباعا تحت عنواني "الرحلة المحمدية سجلماسة" و"رحلة جلالة السلطان إلى الجنوب المغربي "[1].

رابعا: مؤلفاته:

كان لعبد الرحمان بن زيدان عددا من الأعمال ، كثيرة تنوعت مابين كتب ومقالات وقصائد ومحاضرات ، وقد طبع منها اثنا عشرة عنوان على شكل كتب ثلاثة منها صدرت بعد وفاته ، بينما يتوزع الباقي على مقالات وقصائد ظهر جانب كبير منها في جريدة السعادة ، وأخرى مخطوطة ،ويتسم إنتاج بن زيدان بتنوع حقوله ، حيث يتوزع على التاريخ والفقه والأدب والرحلات والفهارس والمعاجم ، ويمكن حصر أهم أعماله التاريخية التي خصها بإنتاج وفير .

" إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس " ، "ويسمى عبير الآس من روض تاريخ مكناس " أو " حسن الاقتباس من مفاخر الدولة العلوية بمكناس " وقد خص به عبد الرحمان بن زيدان مدينة مكناس بهذا التاريخ الكبير ، الذي طبع منه خمسة أجزاء ، وقد ضم هذا التاريخ كل ما يتعلق بمدينة مكناس[2] .

"الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة " خصصه ابن زيدان لحصر أهم إنجازات عدد من الملوك العلويين بفاس وغيرها من المدن ، وذلك في عدد من الميادين ، سواء العمرانية منها أو العلمية ،وكانت هذه الدرر أيضا عبارة عن عرض مفيد لملوك الدولة العلوية الشريفة كالمولى الرشيد

1- محمد المنوني ، المصادر العربية لتاريخ المغرب ، الرباط ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ج:2، ص:240.

2- حسن الوزاني ، ضمن تحقيقه لكتاب "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " لعبد الرحمان بن زيدان ، ج:1، ص:42.

وأخيه المولى إسماعيل وأولادهم وأحفادهم الكرام وذكر ما خلدوا بفاس وغيرها من مدن المغرب ونواحيه من آثار وعلمية وتاريخية مما لا غنى للمؤرخ الحق عن معرفته وختمها بطائفة من تقاريظ جماعة من العلماء كالشيخ المحدث محمد المدني ابن الحسني ، والفقيه الرندة ، والشيخ محمد بن العربي العلوي والفقيه محمد الحجوي والأديب الطاهر اليفرني وغيرهم من العلماء والأدباء .[1]

ومن مصنفاته التاريخية والاجتماعية والسياسية "كتابه العز والصولة في معالم نظم الدولة "بين فيه ابن زيدان معالم أنظمة حياة ملوك المغرب وتقاليدهم وطرائقهم في ممارسة الحكم ، كما استحضر فيه أنظمة تولية العمال واختيار القضاة والحسبة والسجون والتعليم ومراتب العلماء والقوة الحربية ، وكان من أهم المؤلفات فائدة ، وأجدرها مرجعا وقيمة للمؤرخين والباحثين والسياسيين والإداريين ، فكان بهذه الصفة ديوانا للأنظمة والأعراف الإدارية التي كان معمولا بها في الدولة المغربية ، وقد كان لابن زيدان فيه صولته وذلك بتوضيح بيان ما جاء فيه من أبواب كالقانون العرفي لبعض القبائل البربرية ويستعمل أيضا بمعنى القانون الشرعي[2]، واللفظ البربري فكانت هذه البادرة من المؤرخ ابن زيدان لها قيمتها المفيدة إذ جاءت كمعجم يفسر للمطالع والقارئ بعض ما يغمض ويعسر عليه معناه في عدة ألفاظ وكلمات استعملت بالمغرب خاصة بدار المخزن [3].

"المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف" خصصه ابن زيدان للتعريف للتعريف بالسلطان المولى إسماعيل ، للإحاطة بما أنجزه هذا السلطان على المستويين الداخلي والخارجي ، سواء فيما يتعلق بتنظيم الدولة أو العمران أو ذلك ،وقد صدر الكتاب بتحقيق وتقديم عبد الهادي التازي ، عن مطبعة ايديال سنة 1993م ، [4]

1- عبد الله بن العباس الجراري ، التأليف ونهضته بالمغرب الأقصى في القرن العشرين من 1900إلى 1972م ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع –الرباط ، ص:146.

2- سعيد بنسعيد العلوي وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق، ص:64.

3- عبد الله بن العباس الجراري ، المصدر السابق ، ص: 347.

4- حسن الوزاني في تحقيقه لكتاب "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين "لعبد الرحمان بن زيدان ، ج:1،ص:43.

ومن مؤلفاته التاريخية والأدبية والتي لم تطبع بعد منها " المناهج السوية في مآثر الدولة العلوية " وقد احتوى على مجلدين وكان تأليف بإيعاز من المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي ليدرس في أقسام التعليم العالي بجامعة القرويين [1]، وقد جمع فيه ابن زيدان كل ما كتبه في مختلف مؤلفاته عن الدولة العلوية [2].

ومن الكتب التاريخية الهامة " النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية " وهذا المؤلف يعود إلى محاضرة كتبت خلال عام 1937 م ، كرسها ابن زيدان لرصد المنجزات الثقافية خلال عهود عدد من ملوك الدولة العلوية ، والمتمثلة في بناء المدارس والمجالس العلمية والتأليف والأمر بالتأليف ، وقد وقف ابن زيدان عند محطات ولايات عدد من الملوك ، منهم مولاي الرشيد ، إسماعيل الأكبر ، ومحمد بن عبد الله ، وأبو زيد عبد الرحمان بن هشام بن محمد ، ومحمد بن عبد الرحمان بن هشام ، وأبو المحاسن يوسف بن محمد ، ومحمد بن يوسف بن الحسن [3] .

من المؤلفات الهامة كتابه القيم الذي يؤرخ للعلاقات الدبلوماسية والسياسية للدولة العلوية والدول الأجنبية " العلائق السياسية بين الدولة العلوية والدولة الأجنبية " وكان فيه من الجوانب السياسية ما يتعلق بمعاهدات وغيرها مما كان يجري به الحال في تلك الفترة ، وقد استعرض فيه ابن زيدان تطور العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وعدد من الدول الأجنبية ، مع اعتناء خاص بتقديم عدد من نصوص المعاهدات التي ربطت المغرب بعدد من الدول الأوربية ، وقد صدر هذا الكتاب بتقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي ، عن المطبعة الملكية بالرباط سنة 1999 ، كما سبق لابن زيدان أن نشر ملخصا للمصنف ملحق مجلة "المغرب" سنة 1934م في أربعة وأربعين صفحة [4] .

1- سعيد بنسعيد العلوي وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:261.

2- ابن سودة المري ، عبد السلام عبد القادر ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، المصدر السابق ، ص:107.

3- حسن الوزاني في تحقيقه لكتاب "معجم طبقات المؤلفين "لعبد الرحمان بن زيدان ، ج:1،ص:44.

4- الإدريسي القيطوني الحسني ، إدريس بن الماحي ،معجم المطبوعات المغربية ، سلا ، مطابع سلا، 1988، ص:150.

ومن المحاضرات التاريخية ، محاضرته حول "أثار مولانا إسماعيل بمدينة مكناسة الزيتونة " الصادرة بجريدة السعادة سنة 1922م ، ومحاضرة "الأكياس بملخص تاريخ مكناس" وقد شارك بها ابن زيدانفي لقاء مع تلاميذ المدرسة الحربية بمكناس سنة 1940م، بالإضافة إلى محاضرة مولاي إسماعيل والأميرة دوكانتي " كذب فيها قصة خطبة السلطان مولاي إسماعيل الأميرة دوكانتي من والدها ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وألقيت هذه المحاضرة بإذاعة راديو المغرب سنة 1936م ، ومحاضرات وأعمال أخرى من بينها محاضرة عن "نظام القصور الملكية ومنجزات الدولة العلوية بفاس من عهد المولى الرشيد إلى عهد محمد بن يوسف " شارك بها ابن زيدان في المؤتمر الثامن المنظم بمعهد الدروس العليا ، المنعقد سنة 1933م[1].

وهناك محاضرات تاريخية كمحاضرة عن حياة الوزير اليحمدي ، أحدوزراء السلطان إسماعيل ، وقد شارك بها ابن زيدان في مؤتمر الثقافة العربية بتونس ، ومحاضرة أخرى عن "التاريخ واهميته" ، وقد نشرت في جريدة السعادة الصادرة في سنة 1937 ، ومحاضرة عنوانها " مبادئ التاريخ " شارك بها في المؤتمر السنوي بمعهد الدروس العليا بالرباط عام 1924م[2].

رسالة في وصف قصر الدار البيضاء ، وقد خصصها ابن زيدان لوصف القصر المذكور الذي أنشأه السلطان محمد بن عبد الله بمكناس ، سنة 1776م ، وقد كتبت بخط ابن زيدان عام 1922م ، وهناك تقاييد تاريخ متنوعة كانت كلها أعمال من ابن زيدان[3].

وهذا الإنتاج القيم والثروة التاريخية بخاصة ما يتعلق بالدولة العلوية،من وثائق ورسوم وصور وآثار لولاه ما كتب لها أن تريح رائحة المداد ولبقيت متناثرة هنا وهناك ، ولكن الهمم الكبيرة إذا عزمت فعلت ولا كهمة النقيب الزيداني المؤيدة بولوع ثقافي نادر حركته كباحث للقيام بهذا الواجب

1- حسن الوزاني في تحقيقه لكتاب " معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين" ،لعبد الرحمان بن زيدان ، ج:1،ص: 45.

2- نفسه ، ص:46.

3- سعيد بن سعيد العلوي وآخرون ،عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص247.

العلمي والحفاظ على تراثه الخالد الذي لم تلبث المعلمة المغربية أن اعتزت به وتعتز طالما بقي عرق ينبض في الثقافة الحق الداعمة للمنهاج القويم [1].

ولقد كان ابن زيدان لا ينقطع عن البحث والتأليف والعناية بالوثائق ودراستها وتحليلها والاستفادة من الظهائر والرسائل في كتابة ما يحتاجه من تاريخ خاص بالأسرة العلوية ، ولم يكن ابن زيدان لينسج على غير منوال ، فالكتابة التاريخية المغربية قد اتخذت منحى معينا في نهاية القرن التاسع عشر ، ومع ما كان للناصري والكتاني من أعمال ومؤلفات تاريخية كثيرة ، كانت قد اكتملت الاتجاهات العامة لهذه الكتابة،إذ أصبح الدين والعلم والسياسة ، أو تاريخ الصلحاء والعلماء والرؤساء هو الموجه الأساسي للتأليف التاريخي ، ومع ذلك فإن أعمال ابن زيدان لا يمكن حصر استمدادها من هذين العملين فقط ، بل إنها استلهمت أعمالا كثيرة من التراث التاريخي الإسلامي [2].

هكذا وجد ابن زيدان نفسه دون سابق إصرار مؤرخا مهموما بالتاريخ الوطني لبلاده يفتش وينقب بين ثنايا وكنوز الماضي الغابر عن الوثائق والشواهد التي تثبت فعلا عراقة الأمة المغربية ومجدها السياسي ، يؤلف بين أجزائها لبناء صرح وصورة ناصعة عن الماضي ويساجل ويناظر آراء ونظرة الذين أنكروا تاريخ الأمة المغربية [3] .

1- عبد الله بن العباس الجراري ،المصدر السابق ، ص : 349

2- خالد طحطح ومحمد بكور ، مؤرخون مغاربة ، المرجع السابق ، ص: 196.

3- المرجع السابق : ص: 196.

صفوة القول في ختام هذا الفصل بعد ما كان فيه من تتبع لحياة ابن زيدان من تنشئة وتكوين ومواقف ومؤلفات كثيرة متنوعة في الجانب التاريخي ، وما تم الوقوف عليه من مساهمات وكتابات أصلت لهاته الشخصية خصوصا ما تعلق بالحياة الفكرية والعلمية ، وما كان لابن زيدان من مؤلفات صبت في وعاء التاريخ المغربي بصفة عامة وتاريخ الأسرة والدولة العلوية بصفة خاصة.

الفصل الثاني : عند عبد الرحمان ابن زيدان مؤرخا

المبحث الأول :مساهمة عبد الرحمان بن زيدان في كتابة التاريخ

المبحث الثاني : عبد الرحمان ابن زيدان أسلوبه وفكره في كتابة التاريخ

المبحث الثالث: موضوعات التاريخ عند عبد الرحمان بن زيدان

كان لعبد الرحمان بن زيدان مؤلفات كثيرة ، ساهمت في كتابة تاريخ المغرب عموما وتاريخ الدولة العلوية على الخصوص ، وكانت في مجملها كتابات تتعلق بتاريخ السلاطين العلويين وذكر منجزاتهم ومدحهم ، وغيرها خلال العهد العلوي وقبل الحماية وما تخللها، كما كانت هذه المؤلفات متعلقة بالميدان التاريخي الذي اهتم بجوانبه عبد الرحمان بن زيدان، وقد اعتمد في كتابة التاريخ العلوي على عدة موارد ومصادر كانت بمثابة الدعائم لهاته المساهمات التاريخية .

المبحث الأول :مساهمة عبد الرحمان ابن زيدان في كتابة التاريخ

أولا:مفهوم التاريخ عند ابن زيدان

يقول المستشرق الفرنسي ليفي بروفنصال في كتابه "مؤرخو الشرفاء " " وعليه فلا ينبغي ونحن نتكلم عن بلاد عرف أهلها بالأغراب في المحافظة على التقاليد والنواميس السلوكية ، أن نعجب من ميل مؤرخيه إلى الاشتغال بسير المتقدمين من الأشراف والنبلاء ، سواء منهم الملوك والحكام الذين تعاقبوا على مسرح السياسة وكانت بأيديهم أزمة الأمور ، أو العلماء الصالحين المعروفين بإخلادهم للحياة الروحية ، فكانوا في نفس الوقت إخباريين وكتاب تراجم ، سالكين المسالك التي سبقهم إليها المؤرخون في باقي أقطار العالم الإسلامي "[1].

والنص يشير إلى الدور الذي لعبه مؤرخو القرن التاسع عشر ومنهم عبد الرحمان بن زيدان ، الذين كتبوا مؤلفات حول السير والتراجم ، مقتدين بمن سبقهم في هذا المجال ، وبنظرة مغايرة للكتابة التاريخية التي كانت قبل الفترة المعاصرة .

1- ليفي بروفنصال ، مؤرخو الشرفاء ، تر:عبد القادر الخلادي ، الرباط ، دار المغرب للتأليف والنشر والترجمة ، 1977، ص:47.

كما ينطبق هذا النعت تماما على عبد الرحمان بن زيدان وما يدلعلى ذلك إسهامه كان واضحا أكثر في ميدان التراجم ، خلافا لعطائه في الميدان التاريخي المحض ، ومهما يكن من أمر ، فإن ابن زيدان في مؤلفه إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس يتحدث عن تصوره للتاريخ وماهية التاريخ بصفة عامة .

لا يخرج مفهوم التاريخ عند ابن زيدان عن ما كان من السابقين ممن كتبوا عن التاريخ من أمثال السخاوي والسيوطي وغيرهم " فالتاريخ علم يبحث فيه عما مضى من سالف الدهور وعن أحوال المتقدمين من الأمم وأسماء المشاهير منهم ، ومعرفة أزمنتهم وأمكنتهم ، وسيرهم وعوائدهم ، وما يتعلق بحياتهم ووفياتهم "[1].

ويعنى التاريخ بأعمال الإنسان في كل زمان ومكان ، فيبحث في سير المتقدمين من الملوك والعلماء والصلحاء ويكشف حالة المدينة والعمران ، وقوة الدول وفشلها وأسباب تقدمها وتأخرها [2].

كما يصنف عبد الرحمان بن زيدان التاريخ إلى عدة أقسام مستندا إلى ثلاثة معايير : فالتاريخ من حيث مصدر مادته أثري وبشري ، فالأول ما قصته الكتب المنزلة ، والسنة النبوية ، والثاني ما دونه علماء الأمم من الوقائع والحوادث والحروب وغيرها ، وهو من حيث مراحله وحقبه ينقسم إلى قديم وحديث ، فالقديم ما كان قبل الإسلام ، والحديث ما كان بعده ، أما جهة تدوينه فينقسم إلى تاريخ عام وتاريخ خاص فقد يقع في الدول من بدء الدنيا ، وقد يختص بالدولة الإسلامية مثلا وقد يكون في أعمال الأعيان ووفياتهم ، وقد يكون في اختطاط البلدان والمساجد وغير ذلك [3].

ويشير ابن زيدان إلى أن من يمارس التاريخ و الذي هو في رأيه من " أعظم العلوم وأعزها وأشرفها وأنفعها " وظيفتين متكاملتين الأولى هي الاعتبارات بسير السابقين ووقائع الماضي على سير

1- ابن زيدان ، إتحاف أعلام الناس... ، المصدر السابق ، ص :30.
2- نفسه ، ص: 30.
3- نفسه ،ص:30

المتقدمين يتأسى بأخلاقهم ويتضح بأحوالهم في دينهم ودنياهم ، ويكتشف عورات الكاذبين فيتجنب سوء أعمالهم ووخيم منقلبهم " ، وهو بذلك كالمرآة الكبرى التي تعكس الماضي بكل تفاصيله ، فيلاحظه المرء بتبصر وتدقيق ، فيتخلى عن الصفات الذميمة ، ويتحلى بالآداب والأخلاق الحميدة " إذ قصص من قبلنا عبر لأولي الألباب "[1]، الثانية هي التأدب بجميل الفضائل ومكارم الأخلاق ، فالتاريخ أكبر مرب للأذهان ومرق لحالة الإنسان والعمران ، لذلك عد من الفنون الأدبية لأنه أكبر مرشد للتخلق بالأخلاق الحسنة ، ومجانبة أهل الرذائل والنقائص[2] .

وممارسة ابن زيدان لكتابة التاريخ على العموم والتاريخ العلوي على الخصوص ، تفصح عن وظيفة جديدة شكلت الدافع الأساسي لعملية الكتابة ، إنها وظيفة تربوية ، تستهدف النشء والأجيال الجديدة من أجل تقوية روابطها بعناصر هويتها ، ووقوفها على عظمة بلدها ، ومساهمتها بنصيب وافر في بناء الحضارة الإنسانية ، والأهم من ذلك تعبئة هذه الأجيال للالتفاف حول السلطان رمز عظمتها وضامن وحدتها [3] .

فالحاضر هو المقصود من النظر الماضي ، ووقائع التاريخ وسير رجاله إنما هي تجارب يستلهم منها الجيل المعاصر الدروس والعبر لبناء الحاضر والتطلع للمستقبل ، وأما السبيل إلى ذلك فهو غير ممكن إلا بإثبات وجود عنصر يحظى بالإجماع ، وهو هنا شخص السلطان الذي يمثل " الدولة المغربية العريقة " ، إن ابن زيدان يتبنى المفهوم الذي كرسه كتاب " الآداب السلطانية " من أن الملك هو المسؤول عن قوة الدولة ورقيها ، وعن انحطاطها وزوالها ، بما يتوفر عليه من خصال ، وبما ينهجه من سياسات[4] .

1- عبد الرحمان بن زيدان، المصدر السابق ، ص: 33.

2- نفسه ،ص : 38.

3- عبد الوهاب بنمنصور، في تحقيقه لكتاب ، العز والصولة في نظام الدولة ،لعبد الرحمان بن زيدان : ، المطبعة الملكية بالرباط ،1962،ج1، ص : 277.

4- خالد طحطح وبكور محمد ، مؤرخون مغاربة ، المرجع السابق ، ص :197.

ولأن التأريخ عند ابن زيدان تحصين للذات ودفاع عن وجودها فإنه " وجب تحذير مطالع التواريخ من التأويل على قيل ، وباطل ودخيل " إذ ليس كل المؤرخين في نفس المنزلة المؤرخين الذين كان لهم إسهام كبير مثل اليعقوبي والطبري والمسعودي وابن الأثير وابن خلدون وغيرهم ومن جاء بعدهم مثل الجبرتي ، استوعبوا أخبار ما تكلموا عنه ، وحرصوا على أمانة النقل مع" اعتبار أحوال المسموع والمسموع منه " حين خلط المتطفلون هذه الأخبار بدسائس من الباطل ولفقوها بالروايات الواهية ، فنشأ عن ذلك تواريخ تحوي من الباطل أكثر مما تضم من الحق[1] .

وابن زيدان يعتبر ناقد بصير وكان لا يقبل من الروايات إلا ما تدعمه الوثائق والمستندات فهو مؤرخ ناقد لروايات التاريخية ولا يسلم لها إلا إن آزرتها الحجج والشواهد ، ولقد رفض أراء المؤرخين في قضية تجنيد جيش العبيد لأنها بنيت على غير أساس ولم تستند إلى وثائق تدعمها بينما حصل المؤلف على دفاتر وسجلات توثق لهذه العملية وتشهد بالتزام السلطان الحرفي بقواعد الشرع [2].

كما انتقد ابن زيدان القصة التي تناقلها المؤرخون الأوربيون حول خطبة السلطان إسماعيل الأميرة دوكانتي[3] من والدها لويس الرابع عشر ، واعتبرها حديث خرافة ، ومما يتضاحك منه الصبيان ، إذ كيف يعقل أن تتم هذه الخطبة مشافهة من غير أن تعززها رسالة رسمية موجهة إلى والدها ، علما أن مراسلات كثيرة جمعت بين الملكين ، حول مواضيع أقل أهمية أحيانا ، ويخلص إلى أن هذه الرواية

1- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس... ، المصدر السابق ،ج:1 ، ص ، ص : 40،41.

2- نفسه ، ص : 120.

3- قصة الأميرة دوكانتي والسلطان إسماعيل هي عبارة عن محاضرة ألقاها عبد الرحمان بن زيدان والتي نشرت في جريدة السعادة وفيها يفند ويكذب ابن زيدان ما تم ترويجه عن ما تداوله بينه وبين سفيره إلى فرنسا بجمال الفتاة دوكانتي ، وطلب السلطان إسماعيل خطبتها من والدها بواسطة سفيره غير أن والد الفتاة رفض ...ويقول ابن زيدان في ذلك وعنده لم يجد ...فلم أعثر على شيء يستحق الذكر فيها أو تطمئن إليه النفس"، ينظر ادريس بن الماحي الإدريسي ، معجم المطبوعات المغربية، مطابع سلا ، 1988،ص:149.

الخيالية مما ابتدعه بعض المتعصبين للنيل من سمعة السلطان،مادام أنهم لهم لم يستطيعوا إثبات الواقعة ولو بوثيقة وحيدة .[1]

وقد حرص ابن زيدان في كتاباته عن الدولة العلوية على أمانة النقل والتثبيت ولزوم الصدق بما يكتب ، واستند في حججه التاريخية إلى الوثيقة التي ينقلها كاملة ، أو يعمد إلى تلخيصها ، حتى غدت مؤلفاته كنزا حقيقيا للوثائق المتعلقة بتاريخ الدولة العلوية ، ولا يخفي حسرته عن ضياع القسم الأكبر من

وثائق الدولة التي تم تفريقها وإهمالها حتى طالها الضياع فعلا ، ويسجل ما وصل إلى يده من تلك الوثائق ليس إلا النزر اليسير مقارنة بتلك التي امتدت إليها يد الإتلاف [2].

أما مصادر ابن زيدان فهي متنوعة تنوع المواضيع التي يكتب فيها ، منها كتب التاريخ بجميع أجناسها ، ووثائق الدولة من ظهائر ورسائل وسجلات ودفاتر ، إضافة إلى أرشيف الأسرة المخزنية ، كما اعتمد على الروايات الشفوية ومعاينة الآثار والبنايات ، غير ذلك مما يمكن أن ينير له جوانب الموضوع الذي يعالجه[3] .

1- عبد الرحمان بم زيدان ، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف ، تح : عبد الهادي التازي ، الدار البيضاء ، مطبعة إيديال ، 1993، ص،ص : 268-272.

2- خالد طحطح وبكور محمد ، مؤرخون مغاربة ، ص 198.

3- نفسه ، ص 198

ثانيا: دور ابن زيدان في كتابة تاريخ المغرب على العهد العلوي

بدأ المغاربة يكتبون تاريخ بلدهم في القرن السادس عشر الهجري ، أي بعد أكثر من ثلاثة قرون من بداية التدوين التاريخي بالمشرق ، وقد صبت هذه الكتابة التاريخية في وعاء التاريخ العربي ، الذي تمخضت عنه مباشرة التأريخ لحاجة اقتضاها ذلك العصر من ظروف سياسية واجتماعية وفكرية ، وقد عرف عهد الدولة العلوية تأليفا في التاريخ أغزر وأوسع ، فقد وقع التأليف في التاريخ السياسي للدولة العلوية ، إما كجزء من تأليف عام ، كما عند الإفراني في "نزهة الحادي "والزياني في "الترجمان" والناصري في " الاستقصا" وكان سعي عبد الرحمان بن زيدان إلى الحفاظ على تاريخ المغرب وكتابته خصوصا خلال العهد العلوي وما تعلق بجانب السياسية ، فا التاريخ السياسي يحتل القسم الأكبر والأكثر غزارة وإنتاجه التاريخي في مجمله هو إبراز لدور الملوك العلويين في بناء الدولة وتكريس السلطة المركزية في مقابل الفوضى والتشتت ،لقد تحكمت موجهات رئيسية في صياغة ابن زيدان هذا التاريخ والكتابة التاريخية بصفة عامة ، فانتماؤه إلى الأسرة الحاكمة منحه شعورا عميقا بكيان الدولة العلوية كتجربة تاريخية ، واستطاعت هذه الدولة أن تجد لنفسها موطئ قدم بين الدول والأمم الأخرى ، وأن تحمي استقلال بلادها وتنشئ نظمها الخاصة في الإدارة والجيش والاحباس وغيرها ، وهي رغم الدواهي إلا أنها مازالت قائمة ومستمرة وقائمة [1].

وجمع عبد الرحمان بن زيدان تاريخ الدولة العلوية وقدمه للناشئة والأجيال القادمة ناصعا واضحا كي تقف على رسوخ قدم وطنها في التاريخ ، وتقتنع أن الاحتلال ماهو إلا مرحلة زمنية عابرة ، وكان سعي ابن زيدان إلى تكوين رؤية منسجمة للماضي هو حقيقة الأمر محاولة لتأكيد وحدة الحاضر، وأما حالة الاستعمار والضعف الذي تعانيه الأمة ، يعمل المؤرخ على توحيد أمجاد الماضي وترسيخ أخباره في ظل سلطة موحدة لا زالت مستمرة ، وتقترح نفسها كفاعل يستطيع ضمان وحدة

1- سعيد بنسعيد العلوي وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق، ص،ص :49، 50.

المجتمع في المستقبل [1]، لكن اللافت أن المؤلف لا يرى الدولة إلا مجسدة في شخص السلطان ، فإذا كانت قد تجذرت في الزمن واتصل ملكها ، فلأن السلاطين امتلكوا من صفات العلم والذكاء والصلاح ما فاقوا به كل أفراد المجتمع ، وهيأوا لها جميع أسباب النهوض والرقي .[2]

وهذا ما يساعد على فهم موقف ابن زيدان من الحماية ، إذ لم ير فيها جانبها الاستغلالي لخيرات البلاد وتفقيرها للعباد ، بقدر ما رأى فيها اعتداء على رمز البلاد وتعطيلا لمهمة الإمامة ولذلك فإن طريق المقاومة الحقيقي هو الالتفاف حول صاحب العرش والقيام بحقه فهو روح الرعية ، والكفيل بما يصلحها ويشفيها ومن أشكال القيام بهذا الحق إظهار الفرح به ، والاحتفاء به ولأجل ذلك حث المغاربة على الاحتفال بذكرى جلوس السلطان محمد بن يوسف على العرش قائلا " فالواجب علينا أن نحتفل بتخليد هذه الذكرى مجتمعين ، ونتخذ هذا اليوم عيدا وطنيا ولسنا في ذلك مبتدعين ...أيتها الأمة المغربية ذات النخوة العربية والنفوس الأبية ، إنه لابدع في قيامكم بهذا الواجب المطلوب نحو ملككم المحبوب ....إن هذه الذكرى لمرآة صقيلة يتجلى فيها ما قام به في ترقيك مولانا الإمام ، وما بذله من نفس ونفيس في سبيل إصلاحك العام ...وفي ذلك دليل على اهتمامه بترقيتك ، وتحسين تربيتك "[3] .

ولما رأى أن المعاصرين تراجعوا عن خدمة الإمام "و القيام بهذا الحق الواجب المحتم نحو المتبوع الأعظم ، وألقوه وراءهم ظهريا ..." [4] ، أخلص نفسه لأداء هذا الحق المفترض والقيام بواجب هذا الغرض ، فشرف خدمة الإمام ، هو بيت القصيد عنده ، وتاريخ المغرب كما رآه المؤلف هو التاريخ السياسي، في حين التاريخ الاجتماعي غاب عن اهتمامه ، غير أن تأكيد شرعية الدولة المخزنية ،

1- خالد طحطح ومحمد بكور ، مؤرخون مغاربة... ، المرجع السابق ، ص : 199.

2- نفسه ، ص: 199.

3- عبد الرحمان بن زيدان ، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة ،الرباط المطبعة الاقتصادية ، 1937، ص:221-222.

4- سعيد بن سعيد العلوي وآخرون ، ابن زيدان ، المرجع السابق ، ص 57.

كسلطة فقدت سلطتها الفعلية وأصبحت تابعة لقوة خارجية هي المتحكم الفعلي في الشأن الداخلي ، وأصبحت قوة الحماية هي الفاعل في الساحة، كما أن تركيز ابن زيدان على الماضي الأبعد ، واختصاره أخبار مرحلة التدهور بعد وفاة الوزير أحمد بن موسى ، وعزوفه عن تدوين أحداث مرحلة الحماية إلا ما تعلق منها بشخص السلطان ، تخفي الكثير من المرارة التي تجرع غصتها وبثها بين السطور [1].

لقد تملكت ابن زيدان فكرة النقاء والخير المطلق ، وكتب تاريخا هو أميل إلى البطولات منه إلى تاريخ زمني ، هكذا نجد المسكوت عنه يزداد كلما تعلق الأمر بالثورات والتمردات ، ذلك أن تدوين هذه الأخبار يعارض مقصود المؤرخ في إثبات وحدة المغاربة وتوحدهم حول العرش العلوي على مر التاريخ ، وإذا ما تم تدوينها فبغرض تسفيهها وأخذ العبرة من شر عواقبها [2].

تمثل حياة وأعمال السلاطين لب التاريخ وجوهره ، وأخبارهم وغيرها من مناقبهم ولا تروي بقية الأخبار إلا على هامشها ، فيصبح السلطان مركز التاريخ وقطب رحاه ومهما استقبحنا بعض تصرفات السلطان فهي دائما تخفي حكما نقصر عن بلوغ مكنونها ، فالسلطان إسماعيل عندما أقام الحد على ابنه محمد العالم ، إنما يؤكد وقوفه لدى الشرع الأقدس لا يراعي في ذلك قاصيا ولا دانيا ، شأن أهل العدل والإنصاف ، ثم هو ما أقدم على ذلك إلا بعد أن أغراه بعض العلماء ممن كان يبغض المقتول وأظهر له المصلحة في ذلك .[3]

كان ابن زيدان يستحضر شخص السلطان دائما في شكل الشريف والولي الكامل ، والعالم الصالح ، والقائد الداهية ولولا غش البطانة ،وفساد الرعية ما ضعيت الأمة المغربية مجدها العريق ، ولا أغرت بها أيدي الأعداء المتربصين وفي هذا الصدد يقول ابن زيدان " وماذا عسى أن يفعل السلطان

[1]– خالد طحطح وبكور محمد ، مؤرخون مغاربة... ، المرجع السابق ، ص: 200.

[2]– نفسه ، ص : 200 .

[3]– عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق، ص : 120.

وحده إذا أقفرت أمته من أولي الألباب واستولى على قلوب الرؤساء حب المال وتقديم المصالح الشخصية ولو بالتضحية بالعالم أجمع "[1].

ومن خلال مكانة ابن زيدان تبعا لانتمائه للأسرة العلوية ،هذا ما جعله يعبر عن أهدافه وطموحاته، من ذلك اهتمامه بالتاريخ السياسي للدولة العلوية وتأكيد اتصال ملكها ودوامها ، ونصوص البيعة عبر تاريخ العلويين تحفظ تاريخ موصولا وعزا للأمة مكينا ، وتعكس إجماع الشعب على التعلق بملوكه [2].

كان ابن زيدان مؤرخ للدولة العلوية ولكن ما يلاحظ على مؤلفاته هو غياب ترجمة لسلطانين عبد العزيز وأخيه عبد الحفيظ عن متن الإتحاف ، هل يتعلق الأمر بإهمال مقصود أم هذا الغياب تعبير عن موقف ابن زيدان من سياسة هؤلاء السلطانيين التي أدخلت البلاد في ورطة الحماية الأجنبية ، ومهما يكن الجواب فإن حضور السلطان موجه رئيسي في الكتابة الزيدانية ، شعوره بالانتماء للدولة المغربية وبعراقتها في الزمن واتصالها في التاريخ ، يجسده إعجابه اللامتناهي بمؤسس الدولة العلوية السلطان المولى إسماعيل الذي يحرص على الانتساب إليه ، لكونه يجسد كمال التجربة السياسية العلوية [3].

ومن بين العوامل التي كانت وراء إنشغال عبد الرحمان بن زيدان بالتأليف التاريخي والتأريخ للأسرة العلوية [4] والتي يمكن حصرها في ثلاث عوامل أساسية :

[1]– عبد الرحمان بن زيدان ،العلائق السياسية لدولة العلوية ، تح : عبد اللطيف الشاذلي ، الرباط : المطبعة الملكية ،1420هـ – 1999م ، ص : 31.

[2]– عبد الرحمن بن زيدان ، العز والصولة... ، المصدر السابق ، ص27.

[3]– سعيد بنسعيد العلوي وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:49.

[4]– محمد بن تاويت ، الوافي بالأدب العربي بالمغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ج:3 ،1994، ص:775.

العامل الأول : هو الذي حمل عبد الرحمان بن زيدان على التدوين والتأليف ، واسهابه في ذلك من حيث التنقلات السلطانية وفي عناية الملوك المغاربة بالمسالك والطرق وهذا ما صرح بذلك ابن زيدان بقوله "تقررت العوائد السلطانية أن الطرق التي تسلكها المحلة، المولوية في الغالب تكون معلومة بمواضعها ومنازلها ، ويصحب السلطان في حركاته مهندسون وموقتون يصنعون برامج ذلك ويقيدون المراحل وأبعادها بالساعات والدقائق والثواني ، وسهلها ووعرها وما يتعلق بها في دفاتر تعد لذلك ...." [1].

وكان لدولة المغربية من علامات "العز والصولة "ما يتبين الناظر في الكيفية التي كان استقبال السفراء يتم عليها ، وابن زيدان يطنب في ذكر الأدلة والرموز على عراقة الدولة العلوية في هذا المظهر خاصة ، وهو يقف بقارئه وقفة ليست بالقصيرة عند استقبال المولى إسماعيل لسفراء الدول الأجنبية في قاعدة ملكه ، وحتى سفراء حفيده محمد الثالث إلى الدول العربية تونس مصر والحجاز وإلى الباب العالي ورسالة محمد بن عبد الله بن إسماعيل إلى السلطان العثماني ، وقدر أرسل إليه أربعة مراكب بحرية تحمل 536 أسيرا عثمانيا ، أو من موالي العثمانيين الأتراك في الجزائر ، قام السلطان العلوي بافتدائهم من اسبانيا ، دون أن يكون من بينهم أسير مغربي واحد ، إن تلك السفارة والرسالة التي حملتها لغة ناطقة بالأدلة محملة بالرموز على رسوخ كيان الدولة المغربية وارتفاع شأنها بين الأمم [2].

وكان لقوة الدولة المغربية مع عراقتها ورسوخ قدمها في المجد ، بذل مؤرخ المملكة جهودا كبيرة في التأليف في موضوع العلاقات الخارجية للدولة المغربية سواء في مؤلفه " إتحاف أعلام الناس " أو في كتابة "العلائق السياسية للدولة العلوية " أو المنزع اللطيف " الذي أفرده للتأريخ للمولى إسماعيل ، وجهود ابن زيدان هي بمثابة مساهمة كبيرة في التأريخ للدولة المغربية وهي التي أصابها من الحماية الفرنسية والاسبانية التشويه ، والوقوف في وجه القوى الاستعمارية التي تريد طمس معالم تلك الدولة

[1]– عبد الرحمان بن زيدان ،إتحاف أعلام الناس...، المصدر السابق ،ج1، ص:264.

[2]– سعيد بنسعيد العلوي ، من مكنونات الخزانة المغربية المعاصرة نص للمؤرخ عبد الرحمان بن زيدان ، مجلة التاريخ العربي ، العدد :التاسع والأربعون ،1430هـ-2009م ، ص:265.

وتشكيك في أصالتها وهي تنبيه للغافلين عن تاريخ بلدهم من جهلاء المغاربة وتوجيه للنشء نحو ذلك التاريخ [1] .

العامل الثاني : وهو مبتغى ابن زيدان وتوجيه الناشئة المغربية نحو قراءة تاريخ بلدهم والوقوف بالأمثلة الواضحة ، على رسوخ قدم ذلك البلد في مضمار " العز والصولة " أمر شغل ابن زيدان وملأ عليه فكره ووجدانه فهو لم يكن يمل من ذكره وتأكيده في كتبه وتعليقاته ومحاضراته عن عراقة الدولة المغربية بقوله" تاريخ المغرب ، الذي هو في حاجة أكيدة إلى عناية شاملة ليتألف لنا من تلك المجهودات المنتظرة من الشيوخ والشبان سجل حافل بالآيات والبراهين القواطع الشاهدة على تقدمنا بين الأمم وإدلاء دلونا مع كل من أراد المساهمة معنا بنصيب والناطقة بفصاحة بما للمغرب الزاهر من أياد بيضاء على العدالة الحقة ، والمساواة الواجبة ، والخير العميم تلك ظاهرة تستطيع أن تراها رأي العين في كل ما كتبناه ونكتبه ، لنقول لجيلنا الناشئ إن لك لمجدا عريقا ، أساسك لمتين ، لا يزال يغالب العصور والدهور ، فاجتهد ي البناء عليه بناء قويا يطاول الدهور والعصور لتصل بين عملك وعمل سلفك الصالح الذي عبد لك الطريق وسوى لك السبل لتتماشى على بينة ورشاد "[2].

العامل الثالث: من موجهات الكتابة عند عبد الرحمان بن زيدان و هو وجوب الاجتماع حول رمز تلك الدولة المغربية ، هو ملك البلاد وقد ضايقته سلطات الحماية[3] فهي تريد أن تنال منه وتسعى إلى إخفاق صوته وإخفاء نوره سعيا نحو مسخ الشخصية المغربية وإذابتها ، ومؤرخ المملكة المغربية ينبه على أن تلك ثغرة ينبغي ردمها ومنفذا استعماريا يتعين غلقه ، لذلك فنحن نجده اجتهد في السعي إلى التنوير واليقظة وتنبيه الناشئة المغربية إلى تاريخها الوطني قصد استلهامه في اليقظة ومجاورة حال التأخر في هذا الصدد يصرح ابن زيدان " كل م كتبناه ونكتبه لنقول لجيلنا الناشئ إن لك لمدا

[1] – نفسه ، ص:265.

[2] – عبد الرحمان بن زيدان ، لعز والصولة... ، المصدر السابق ، ص : 276،277.

[3] – عبد العزيز الطاهري ، الأستوغرافيا العربية المعاصرة بين التاريخ والذاكرة المغرب أنموذجا ، الفصل الرابع والعشرون، ضمن كتاب التأريخ العربي كيف كتب وكيف يكتب ،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، ط:1 ، أفريل 2017، ص: 758.

عريقا ....اجتهد في البناء عليه بناؤ قويا "[1] كل هاته دروس وموجهاته ما كان لشبيبة الحركة الوطنية في المغرب المعاصر أن تخطئها فقد كانت ، على أي نحو أخذناها ، حوافز للفعل ومدعاة للانفعال القوي ، انفعال يجد مؤرخ الفكر المغربي المعاصر صداه القوي المباشر في الاقبال على درس التاريخ المغربي والكتابة فيه [2].

ثالثا : الظروف التي ألف فيها عبد الرحمان ابن زيدان تاريخه

كان عبد الرحمان بن زيدان قد عمر أزيد من سبعين عاما ، عاش نصف مدتها قبل الحماية الفرنسية على المغرب أي قبل سنة 1912م، والنصف الآخر تحت الحماية ، فمن ذلك أنه ترعرع شب في عهد السلطان الحسن الأول ، وعاش شيخا في عهدي السلطانين عبد العزيز وأخيه عبد الحفيظ ، فتزامن ذلك مع مجريات تاريخ مضطرب وبأحداث كثيرة ، وشهد أيضا تفسخ وضياع كيان الدولة المغربية تحت طائلة التدخل الأجنبي ودخول بضائع أوربا وتصفية وإجراءات تصفية سيادة المخزن وفرض الشروط الأجنبية على المغرب [3].

وهذا ما لاحظه المعاصرين لتلك المتغيرات المعيشة وسجلوها بحصرة وببلاغة في صفحات مؤلفاتهم ،ولابد أنه كان لهم نصيب من الاهتمام والشعور بأن الزمن كان في اضطراب وانقلاب ، وكل من له قدرة على تدوين الحوادث لابد وأن راودته نفسه وأغراه الحال بأن يأخذ القلم ويسجل حوادث الزمان، وفعلا وجد عدد من أفراد النخبة العالمة أنفسهم متورطين من قريب أو بعيد في خضم حوادث تلك الأيام ،إما باستدعاء من السلاطين أو لضرورة اتخاذ موقف من الصراعات الدائرة أو من تلقاء أنفسهم بغرض اقتراح إصلاحات للأوضاع الآيلة للسقوط ، وهكذا وقع الاستشهاد بالتاريخ البعيد خاصة في عدد من الكتابات [4] .

[1]– عبد الرحمان بن زيدان ، العز والصولة... ، المصدر السابق ، ص :278.

[2]– سعيد بنسعيد العلوي ، من مكنونات الخزانة المغربية المعاصرة ، ص: 270.

[3]– أحمد توفيق وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص: 104.

[4]– أحمد توفيق ، المرجع السابق ، ص: 105.

غير أن الهيمنة الرسمية للفرنسيين على المغرب بمقتضى معاهدة فاس لعام 1912م ، لم تؤد إلى القطيعة في مسار التأليف والسلوك الفكري للنخبة المثقفة والعالمة ،فقد استمرت تلك النخبة في طرق مواضيعها التقليدية بفكر لم تجدده الأيام في العمق إلا قليلا ، وظهرت لديها مواضيع محدودة من حيث القمة والجدية كرد فعل عن مستجدات جاءت من التعامل مع الأوربيين ، وظهر لديها تأثر بأفكار الإصلاح المشرقية ، واستمر منها من استمروا في كتابة التاريخ في قوالبه المعتادة فقد وضع الدكالي كتابه " الإتحاف الوجيز" في تاريخ العدوتين للسلطان عبد العزيز ،هذا قبل الحماية وبعدها استمر تقليد الكتابة في تاريخ المدن والجهات والتراجم والأعلام [1] .

ومن المؤلفات التي خصصها أصحابها للمدن وكتب أصحابها عن مدينة الرباط وهي " مقدمة فتح من تاريخ رباط الفتح" و"الاغتباط بتراجم أعلام الرباط" و"تعطير البساط بذكر تراجم قضاة الرباط" وهي لبوجندار ثم "مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط" لمحمد دينيه [2].

وقد وضع عبد الرحمان بن زيدان مؤلفات في التاريخ وفي غير التاريخ ، ودلت هذه التآليف على الاطلاع الواسع لمؤلفها على العلوم اللغوية والدينية ،كما يظهر اهتمامه بالتاريخ جاء في المرحلة الثانية من حياته أي بعد مرور بضع سنوات على فرض الحماية ، في سياق هذا العهد تأتى له التكريس لهذا الاهتمام وضرورة التفرغ له تبعا لشروط مجتمعة ، كتعلمه في القرويين تعلما متينا ونسبه العلوي وترعرعه في بيت والده نقيب الشرفاء ، ونقابة الشرفاء مبنية على تصفح وثائق التاريخ ، وإقامته بمكناس في إطار عمراني ينطق بالتاريخ ، وانتصاب رمز في ذاكرة هذا التاريخ وهو السلطان إسماعيل الذي له مكانة في نفس ابن زيدان واتصال نسبه به عن طريق عبد المالك بن زيدان ، وكلها ظروف توافرت ساعدت ابن زيدان على تبلور مشروعه في كتابة التاريخ ودفعه إليه [3].

[1] – خالد طحطح ، مؤرخون مغاربة... ، المرجع السابق ،ص: 200.

[2] - أحمد توفيق ، المرجع السابق ، ص: 106.

[3] – نفسه ص:107.

وبعد تولي ليوطي كمقيم عام فرنسي بالمغرب وأوكلت له مهمة وضع القواعد السياسية والميدانية لتطبيق معاهدة 1912م من منظوره ، وفي أيامه الأولى من توليته أظهر أنه يأخذ بعين الاعتبار شخصية المغرب الثقافية ، فنصب هنري دوكاستر مستشارا لنظام الحماية ، وبدوره قام دوكاستر بمقابلة السلطان عبد الحفيظ يسأله عن تقاليد الدولة المغربية في حفظ الوثائق ، وفي هذا النظام المزدوج تطلب المنطق أن يكون للمخزن مؤرخ تكون مهمته نشر وثائق الماضي التي تبين شخصية المغرب كدولة ذات سيادة ومؤسسات ونظام وفعالية قائمة إلى وقت قريب من وقوع المغرب تحت الحماية [1].

وهكذا تهيأ لعبد الرحمان بن زيدان لهذا الدور ، وهذا بحكم ظروف موضوعية توفرت في شخصه من حيث أنه متعلم فقيه قابل لأن يتحول إلى مؤرخ من حيث امتلاك الإحساس الضروري وأدوات التعبير وفهم الغرض العام المقصود من التاريخ ، وبحكم انتمائه العائلي الشريف والأميري كانت له مسؤولية وجدانية كان من الطبيعي أن تتجلى في مواقف دفاعية بواسطة اللجوء إلى الذاكرة التاريخية ، ولعله يكون من قبيل هذه الحساسية أنه قرر الرحلة إلى الحجاز وبعض البلاد العربية الأخرى في السنة الموالية لتاريخ فرض الحماية الفرنسية على المغرب ، ورحلته إلى المشرق التي ربطته بشخصيات وفتحت عينيه على أمور أثرت فيه [2].

كان لابن زيدان صلات وثيقة بالسلطانيين يوسف (1912-1927) ويخلفه محمد بن يوسف ، فقد قام بأول عمل له يرشحه لمهمة مؤرخ المملكة عندما جمع ديوان القصائد الشعرية التي قيلت في السلطان يوسف ، وكان هذا الديوان تحت عنوان " اليمين الوافر الوفي في امتداح جناب المولاي اليوسفي" وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة المكتبة المخزنية بمدينة فاس في عام 1923م ، وهذا ما يدل على أن مبادرة جمع هذا الديوان لم تكن مبادرة شخصية معزولة ، فهي تأتي في إطار قرب ابن زيدان من العائلة المالكة وتأهله للدور الذي كان مدعوا للقيام به في تدوين ذاكرة المؤسسة الملكية ، أي التاريخ السياسي للدولة العلوية ، وفي هذا السياق تندرج مواكبته لنشاط السلطان المولى يوسف

[1]- نفسه ،ص:107.

[2]- عبد الله عباس الجراري ، التأليف ونهضته بالمغرب الأقصى ، المصدر السابق ، ص: 334.

ثم لنشاط ولده الذي خلفه السلطان محمد بن يوسف ، وفي هذا ألف ابن زيدان تسجيل رحلة السلطان في جولته داخل المملكة سنة 1940 ، وضمنه كتاب " العقود الزبرجدية في جيد الرحلة السلطانية المحمدية"[1].

وكان لاحتكاك عبد الرحمان بن زيدان برجال البحث الأجانب المواكبين للحماية ، فقد كان بمركزه في مكناس وبموقعه من السلطان وباهتماماته التاريخية محط أنظار عدد من شخصيات سلطة الحماية ، من المقيمين العامين ، ليوطي (1912-1926) وخلفائه ،إلى المستعربين ومؤطري التعليم والبحث من أمثال دوكاستر وليفي بروفنصال ومارسي وجورج هاردي وآخرين الذين وصفوه بالتفتح والأريحية وكرم الضيافة وذو فكر يترفع عن عوارض الدنيا ، طيب السريرة ، وهو سعيد أن يكون خيرا[2].

كان عبد الرحمان بن زيدان واعيا بجميع هذه المعطيات واستفاد منها ، للقيام بعمل تاريخي كبير كانت له مرام وخلفيات أخرى وأبعاد تعدت ذلك الظرف الذي تمخض عنه .

[1]- أحمد توفيق وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص ،ص:108-109.

[2]- نفسه ، ص:110.

المبحث الثاني : عبد الرحمان بن زيدان أسلوبه وأفكاره في كتابة التاريخ

أولا : أسلوب ابن زيدان في كتابة التاريخ

كتب ابن زيدان التاريخ بأسلوب لا يختلف كثيرا عن أسلوب المؤرخين الذين سبقوه ، أسلوب يستند إلى لغة واضحة واصفة متينة تحترم ترتيب السرد في حيزه الزمني ، تتوخى الوضوح والدقة ، وتتجنب التزيين المخل بالمعنى المقصود ، فأسلوب ابن زيدان أسلوب عالم أديب ، يأخذ من معين علوم متعددة توفر له مصطلحات وعبارتها المكرسة وتتيح له الاقتباس الذي يحيل على مراجع ثقافية معلومة ، فهو أسلوب يتطلب من القارئ التحليل والإلمام بالإشارات والعبارات ، وأن يستطيع من وراء كلام مسجوع منمق دون تكلف أن يرصد المعنى الذي يهدف إليه الكاتب ، ويتجلى ذلك في ذكر الأعلام أو عند إبراز فعل سلطاني ينطوي على نخوة وهمة ، كما يتجلى ذلك عند الغضب والنفور مما يستنكف منه من يحترم العوائد ، مثل شغب العوام وثورة القبائل [1] .

وفي ما عدا ذلك فإن أسلوب عبد الرحمان بن زيدان دقيق يشبه أسلوب الوثائق التي يقدمها ، فيه نصوص مدرجة على أنماط ديوانية تتوخى الفعالية والضبط في المعاملة التي تترب عنها عواقب ومسؤوليات ، صنعت لغتها ومصطلحها عبر القرون ولا تترد في استعمال الألفاظ الأجنبية أو العامية ، وقد تناولها ابن زيدان بمصطلحات مخزنية يتطلب قاموسا خاصا يتناول المراسم والسلطانية وتقنيات المعمار وترتيبات العسكرية ولغة المحتسبين والممونين والميقاتين والدبلوماسيين ، فمن هذه الزاوية وحدها تستحق كتابات ابن زيدان دراسات قائمة بذاتها [2].

[1]– عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص :133.

[2]- مصطفى الشابي ، عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا سياسيا ، مجلة كلية العلوم الإنسانية ، الرباط ، ع:العاشر ،ص:140.

من جهة أخرى ، لايظهر ابن زيدان روحا نقدية خاصة إذا تعلق الأمر بحياة الصلحاء ومناقبهم إذ يتقبل المعجزات والخوارق المنسوبة إليهم ولا يشك في صحة وقوعها [1].

والاستطراد عند عبد الرحمان بن زيدان واضح ، فهو إما ينقل كلام غيره على الضوابط المعلومة وإما أن يلخصه ويذكر ذلك بكامل التدقيق ، وإما أن يقدم الوثيقة بما يتطلبه الموقف ، وإذا استطرد بإدخال كلامه فإنه قد يرجع إلى السطر على عادة من يحال على الكلام ويصدر تدخله بعبارة "قلت" ، وتعتبر تدخلات ابن زيدان في ثنايا كتبه فاضحة لأفكاره وموافقة ، وهي تدخلات مستفيضة في بعض الأحيان ، يظهر فيها الفقيه والهاوي المطالع للكتب الحديثة في وقته ، ووهي بدورها مادة لفكر ابن زيدان عامة وليس للتاريخ على الخصوص [2].

وقد تميز أسلوب ابن زيدان بالسلاسة وعدم التكلف في البحث عن الألفاظ القوية ، بل إنه يحاول استعمال مصطلح التاريخ ، ومع ذلك فأسلوبه أقل سهولة إذا ما قيس بأسلوب الناصري في " الاستقصا" فهو يستعمل السجع في غير ما موضع ولكنه يعمل على تبليغ الفكرة دون التقيد بالأسلوب التقليدي المصنوع ، ولذلك فأفكاره على العموم معبر عنها بتعابير لا تشكو من لبس ولا غموض [3].

ثانيا: الأفكار التاريخية لعبد الرحمان ابن زيدان

بما أن ابن زيدان كان نقيبا للأشراف ، وكاتب تاريخ الدولة العلوية ، مرتبطا بها ، قريبا منها ، يعيش تحت النظام الاستعماري (الحماية) المفروض على المغرب ، كلها عوامل لم تكن لتتيح لابن زيدان فرصة التعبير أن أفكاره الجريئة خصوصا ما تعلق بميدان الشؤون السياسية والاجتماعية ، إلا أن تأليفه في التاريخ ، وإن كانت تبدوا عرضا لمحاسن الدولة ودفاعا عن منجزاتها ، ذات مغزى سياسي

[1]- عبد الرحمان بن زيدان ، المصدر السابق ، ص،ص : 114،115.

[2]- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص: 134.

[3]- مصطفى الشابي : عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا سياسيا ،المرجع السابق ، ص : 19.

عميق من حيث أنها تبين أن الدولة المغربية عريقة الجذور موصولة المعالم والكيان ، وكانت قيمة هذه المؤلفات تكمن أهميتها القصوى أمام السلطات الاستعمارية التي لم تألل جهدا في جهدا في تخريب البنى السياسية والاجتماعية والثقافية للمغرب هادفة بذلك إلى ضمان الاستحواذ على البلاد والعباد ، فعندما نشر ابن زيدان كتابه الإتحاف وكتابه الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة ، كان يسعى إلى دحض الأطروحات التي كان يروجها المدافعون عن إيديولوجية الحماية [1] .

ولم يخصص ابن زيدان جزءا أو فصلا خاصا في مؤلفاته خصوصا مؤلفه الإتحاف للمسائل السياسية ، وإنما حاول أن يتطرق إليها في مواضع متفرقة ، وذلك حينما يتحدث ويورد كلام ابن خلدون في موضوع أعمار الدول وفي مساؤى الحكم المطلق نجده لا يتردد في شجب الاستبداد فيذكر الأخطاء التي تتعرض لها مملكة لا يكون مالكها في مستوى المهمة الملقاة على عاتقه بذكره "ومعالجة هذه الأمراض أيسر في الحكم الدستوري مما في الاستبدادي لأن الملوك المستبدين إنما يطلبون النفع الشخصي" [2].

ثم يضيف ابن زيدان بمرارة "ويسوءني للغاية تغلب الاستبداد على طبيعة ملوك الإسلام "[3] ومن هنا يؤكد ابن زيدان على ضرورة العدل في شؤون الحكم وأنه لابد من ضرورة وجود طرف يقوم بموازنة حكم الملك ، ورأى أن الدور يجب أن يعهد به للعلماء الذين يتمتعون بنفوذ فعلي لدى الحاكمين والمحكومين على السواء ، ويؤكد ذلك النظر بقوله "فلذلك وجب على علماء الأمة وأعيان رجالها تغيير المنكرات ، المغيرون للمنكر في الأمة الإسلامية تتقيهم الملوك كما تتقي ملوك أوربا المجالس وآراء العامة الناشئة عنها وعن حرية المطابع "[4].

1- نفسه ، ص141.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق، ص:472.

3- نفسه ،ص:472.

4- نفسه ، ص:473.

ويظهر من رأي ابن زيدان في كراهيته للحكم الاستبدادي ، ولا يستغرب منه ذلك وهو العالم المغربي المطلع على النظم السياسية والإدارية للبلاد الإسلامية ، سيما وأنه كان على اتصال دائم بالأوساط السياسية والثقافية في بلاد المشرق كما كان محتكا بعدد من الباحثين والمسؤولين المتنورين من الأجانب الوافدين على المغرب ، فكتاباته تعج بالأمثلة والإشارات الدالة على التأثر بالمصدرين المذكورين ، وهو لا يتردد في إطلاق العنان لقلمه من حين لآخر ، فيتيح للقارئ تلمس أراءه في عدد من القضايا السياسية والثقافية والدينية .[1]

كما أن ابن زيدان يتحدث عن مسألة الشبان المغاربة الذين أرسلوا في بعثات إلى أوربا ولاسيما في عهد السلطان مولاي الحسن ، وكيف أن البلاد لم تستفد منهم على أحسن ما يرام ثم يعلق على ذلك بقوله " ولما زاولوا دروسهم وملأ بكل نافع حقائبهم وعادوا إلى بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع مستقبلهم فلم يعدموا معاكسا وقف ي سبيلهم وحرم البلاد والعباد مما كان يرجى من فوائد معرفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل كما سلكه أهل اليابان لذلك العهد الذين رافقوهم في دروسهم فكانت النتيجة أن تقدم اليابانيون وتأخرنا ، ولله في خلقه شؤون"[2] .

ومما وجد في أراء ابن زيدان خاصة في شؤون السياسة العامة بحيث أنه لا يرى تناقضا بين تكريس العدل وبين طبيعة الحكم في بلد يحكمه أمير المؤمنين ، فالسلطان خليفة الله في الأرض ، ومن واجب رعاياه الطاعة والامتثال ، وفي هذا السياق ، ينبغي إدخال الإصلاحات التي من شأنها أن تنهض بالبلاد وتخرجها من حال التأخر الذي كانت تتخبط فيه ، ولابد أن يمتد التغيير إلى جميع الميادين التي لا تمس بالقيم الثقافية والاجتماعية للبلاد [3].

1- مصطفى الشابي ، النخبة المخزنية في القرن التاسع عشر ، الرباط ، منشورات العلوم الانسانية ، 1995، ص:16.
2- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس...، المصدر السابق ، ج :2 ، ص : 465.
3- مصطفى الشابي ، المرجع السابق ، ص: 17.

أما أفكار ابن زيدان في التاريخ ، فلا تختلف عن فكرة سابقيه ممن يعتبرون هذا العلم من الفنون الأدبية السامية ، فهو مدرسة تهذب العقول وتنيرها وتمكن من تجنب أخطاء الماضي والسير على النهج القويم ، ولذلك وجب إطراء هذا العلم والعناية به ، كما يرى ابن زيدان أن علم التاريخ في وقته 1930 قد تطور تطورا عظيما فأصبح يتطلب من الباحث بذل جهود كبيرة لمسايرة التقدم وتجنب الكون إلى ما هو موروث في هذا الميدان .[1]

وقد ختم ابن زيدان مقدمة كتابه الإتحاف حول قواعد علم التاريخ ، بحثه المؤرخين على الموضوعية والحياد والتمسك بالحقيقة وعدم ذكر الوقائع إلا بعد التأكد من ثبوتها ، وقد ربط بين هذا المعيار وبين خاتمة وعظية تدور حول أهمية العدل وحياة الشعوب والأمم ، غير أنه يصدر أحكاما أقل التزاما بما يتصوره بخصوص الموضوعية ، فهو يقول مثلا يتحدث عن عظمة الشعوب ومجدها " ومن معرفة الناس لنظام القصور ، تتجلى أمامهم عظمة الدولة وخطرها ، إذ بمعرفة حياة الكلوك تعرف حية الشعوب وأثرها "[2] .

ومن الأمثلة التي تشهد على حدود نظرته إلى الموضوعية وارتباطه بالنظرة التقليدية في التاريخ مايدل عليه حديثه عما يمكن أن نسميه بالثورات والتمردات الشعبية ، حيث نجده يشجبها ويندد بها بقطع النظر عن بواعثها وظروفها ، فالقائمون الثائرون على الحكام عصاة وفساد ورعاع مشبهون بالكفار تجب مجاهدتهم ، وقتالهم من الأمور لواجبة لمشروعة ، وابن زيدن في هذا الموقف متبع لكثير من الكتاب الذين قالوا قبله بوجوب إصلاح الداخل بالقضاء على الفتن قبل التصدي للعدو الخارجي [3].

1- عبد الرحمان بن زيدان ،إتحاف أعلام الناس...، المصدر السابق ، ج: 1 ، ص ،ص،ص : 3،9،10.
2- عبد الرحمان بن زيدان ، العز والصولة... ، المصدر السابق ،ج:1 ،ص : 5.
3- نفسه ،، ص: 399.

ومن العوامل التي جعلت عبد الرحمان بن زيدان يتوجه إلى الذاتية ويحيد الموضوعية ، إعجابه الكبير بعدد من سلاطين المغرب وإكباره لجلائل أعمالهم ، حتى إنه لا يجد أوصافا كافية يغدق منها عليهم في كثير من المناسبات ، الشيء الذي ينال من تحليله لأمور التاريخ ويوقعها أحيانا في الغلو والمبالغة [1].

ولا يكاد يختلف موقفه هذا إزاء السلاطين عن موقفه اتجاه الصلحاء من ذوي المناقب والكرمات ، إذ يعتقدها ويثبتها دون أدنى حس نقدي أو تمييز لمستويات وقائعها ، فهو عندما يترجم لشخص به مس من الجن لا يزيد عن سرد الوقائع كما وصلت إليه [2].

كما أن ابن زيدان يعتبر مؤرخا تقليديا متفتحا للتقدم والأفكار الجديدة ، دون أن يصل إلى تصور لهذا التاريخ الذي بدأ وشيكا في عصره يكتب في أوربا من منظور عوامل الاقتصاد وقضايا المجتمع ، ولكن قيمة ابن زيدان تكمن في عمق القضايا التي ركز عليها وكذا في وعيه بوجود مشاكل تتعلق بالمنهج في كتابة التاريخ ، ومما يزيد من أهمية دوره أنه كرس حياته لكتابة المؤلفات العديدة في ذلك الظرف الثقافي الصعب الذي كانت توجد فيه البلاد ، وعمل على نشر تلك المؤلفات في الأوساط المتعلمة بالمغرب وخارجه ، وتحديد الاعتبار للدولة المغربية بعد أن أراد نظام الحماية إعدام هذه الدولة وطمس معالمها التاريخية والاجتماعية .[3]

وفي هذا الصدر يمكن أن نقول بأن عبد الرحمان بن زيدان اهتم أشد الاهتمام وأولى عناية فائقة للحفاظ على الوثائق الرسمية وإدراج نصوصها وصورها بمختلف اللغات في مؤلفاته ، وكذا اهتمامه برجالات الدولة العلوية وإدراج صورهم النادرة ضمن تاريخه ، وهذه كلها مظاهر جديدة في التأليف التاريخي بالمغرب إلى عصر ابن زيدان .

1- نفسه ،ص : 126.

2- مصطفى الشابي : النخبة المخزنية ...، المرجع السابق ، ص: 19.

3- مصطفى الشابي ، عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا سياسيا ، المرجع السابق ، ص:142.

ويبقى عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا للدولة العلوية وذلك بالكتابة عن سلاطينها وانجازاتهم ، وما كان منهم من مفاخر في الحواضر المغربية خصوصا حاضرو مكناس التي خصها بالكتابة التاريخية التي غلبت عليها الذاتية التي جعلت المؤرخ يحيد عن الموضوعية ، وذلك بحكم الانتماء إلى الأسرة العلوية وسلك في ذلك أوجه متعددة في الكتابة التاريخية عن الدولة العلوية ، إذ أن ابن زيدان أدى به إعجابه المفرط بذوي الجاه والنفوذ إلى ارتكاب بعض الهفوات وإصدار أحكام فيها كثير من العفو كما نلمس ذلك عند وصفه لبعض الآثار[1].

ثالثا : وسائل كتابة التاريخ عبد ابن زيدان

لعل ابن زيدان أول مؤرخ مغربي استفاد من تقنيات عصره في التصوير الفوتوغرافي لكي يقدم عملا علميا وطريفا في آن واحد ، ولعله بلغ في هذا الشأن ما لم يبلغه كتاب التاريخ العرب على العموم إلى وقتنا هذا ، وينصب استعمال الصورة عنده على عدة جوانب ، أولها جانب التوثيق ، فقد نشر إلى جانب عدد من الوثائق التي أوردها في كتابة صور هذه الوثائق ، وهذا ما يثبت صحتها بأختامها وتواريخها ، ويمكن عمله هذا من مقابلة النص المطبوع بالنص المصور ، تفاديا لأخطاء الطباعة على الخصوص ، وهو إلى جانب ذلك أثبت بدون تحفظ وثائق أجنبية بصورها لا غير ، دون طبع نصوصها ، وهذا ينم على درجة كبرى من التفتح على المستندات الأجنبية ، وكان يعرف عمل هتري دوكاستر الجامع لعدد من الوثائق ، ويشيد به ولا يتردد في انتقاده [2].

ميز ابن زيدان في وثائقه بين الظهائر السلطانية ، وهي في الحقيقة تشمل الظهائر بمعنى الكلمة أو القرارات المتعلقة بأحكام أو امتيازات ، وتشمل الرسائل السلطانية ، وبين الرسائل الوزارية والمعاهدات مع الدول ، وتشمل وثائقه أيضا الرسوم العدلية والنقوش الأثرية ، أما الصور فتشمل إلى جانب صور أصول الوثائق الآثار المعمارية المندثرة وآثار المباني القائمة من الخارج أو الداخل والأبواب

1- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس... ، المصدر السابق ،ج:1 ،ص: 125.

2- أحمد توفيق وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص : 135.

والمنابر وغير من الشواهد المكتوبة على الأضرحة والقبور ، وصور العملات والآلات ، وصور الأشخاص الأفراد مثل صور بوحمارة ،أو الجماعات في المواقف التاريخية المهمة مثل صور مولاي الأمين ولجنة التعويضات أو صورة أبو زيد أسيرا على ظهر السفينة الفرنسية كاليلى[1].

من ما سبق فإن وسائل بن زيدان في كتابة التاريخ فهي الوثائق بالدرجة الأولى ، ولكنه لجأ بجانب الوثائق المكتوبة إلى الروايات الشفوية التي جمعها من المعاصرين بكيفية مباشرة ، ولم يقتصر في ميدان الوثائق على أرشيف الدولة بل طرق في هذا باب الخزائن الخاصة والمستندات العائلية [2]، وقد حرص ابن زيدان على أن يبين أن سبيل الباحث في الاستفادة من هذه الوثائق هو تقديم الحيطة والحذر حتى يتأكد من إمكان وقوع الخبر وجواز اعتماده ، مما يدل تأثره بالأفكار الجديدة التي لها علاقة بالموضوعية التاريخية وحرصه على التنبيه إلى أهمية الحفريات الأثرية في إثبات الوقائع أو نفيها وكذا أهمية دراسة النقود والنقوش ، وقد كان على اطلاع تام بالحفريات التي كانت جارية بموقع وليلي ، المدينة الرومانية القديمة القريبة من مكناس ، وعلى ما أبرزته من نتائج ، كما كان مطلعا على أبحاث الفرنسيين المعتمدة على مختلف الوسائل التوثيقية لاستكشاف تاريخ المغرب ، كل ما كان لعبد الرحمان بن زيدان من اطلاع واسع إلا أن ذلك لم يمكنه من تجاوز طريقة أصحاب الحوليات والتراجم في كتابة التاريخ ، فهو عندما يؤرخ لسلطان ، يذكر الحوادث بحسب السنين على غرار ما نجده عند سابقيه مثل الناصري وغير ممن يكتفي بذكر ما يراه مهما من الحوادث حتى ولو لم يكن بينها رابط منطقي مباشر واضح[3].

1- نفسه ،ص:136.

2- عبد الرحمان بن زيدان ،إتحاف أعلام الناس...، المصدر السابق ، ج:5 ، ص :339 .

3- علي عمر في تحقيقه لكتاب إتحاف أعلام الناس ...لعبد الرحمان ابن زيدان ، ج:1 ، ص: 1.

ولا تفوته فرصة سانحة إلا وأتى فيها باستشهادات من كلام مشاهير الأدباء والفقهاء لكي يؤيد واقعه أو يبين مغزاها أو ليقوم بالتعليق عليها ، وكان مثل صاحب الاستقصا لا يتردد في الاستشهاد بآراء الكتاب الأوربيين في بعض القضايا التاريخية التي يناقشها [1].

إن ابن زيدان أحرز السبق بين المؤرخين المغربة في الاستفادة من التصوير ، واستعمله على نطاق واسع ، فقدم لنا وثائق في غاية الأهمية ، والتصوير عنده ليس مجرد تزيين ، وإن لم نجده يتوقف لتحليل بعض المشاهد الناطقة على أساس أن الصورة وثيقة ، فإن قراءته للنقوش تدل على أنه فد كان واعيا بأهمية الأنماط الأخرى من الشواهد غير النمط الكتابي المألوف [2].

المبحث الثالث : موضوعات التاريخ عند عبد الرحمان بن زيدان .

أولا : التاريخ السياسي والعسكري :

أ- التاريخ السياسي :

ينصب اهتمام التاريخ السياسي على علاقة الحكام بالمحكومين ، ولا تدرك هذه العلاقة على مستوى الأفراد في السياق الذي أرخ له ابن زيدان بقدر ما تتجلى على مستوى الجماعات ، فالمحكومين أو الرعية هنا عبارة عن قبائل وجماعات ومدن وفئات اجتماعية ذات نفوذ مثل أصحاب الزوايا والعلماء ، ويعتبر تاريخ ابن زيدان ، بما يورده من معلومات من مصادره ذات الطبيعة السياسية وبما يقدمه من وثائق مخزنية بنصوصها ،معينا للتاريخ السياسي في عهد الدولة العلوية ، ومن جهة ، ومن جهة أخرى فإن تقديمه لمواد هذا التاريخ واختياره لها وتعليقه عليها يبرز فهمه الخاص للسلطة السياسية وللعلاقات التي كانت بينها وبين فئات المجتمع [3].

1- مصطفى الشابي ، النخبة المخزنية ...، المرجع السابق ، ص:18.
2- سعيد بنسعيد العلوي ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:136.
3- نفسه ،ص: ص141.

فمواد تاريخ ابن زيدان وافية في جوانب وظروف تولية السلاطين ، والوثيقة الرئيسية في التولية هي البيعة وظروفها ، وهي بيعات من المدن الرئيسية في أغلب الأحيان ، ونصوصها تصف أصول البيعة في الإسلام وتذكر أهلية السلطان المتولي والشروط العامة التي يجب المحافظة عليها وهي حفظ الدين وتطبيق الشرع وصيانة أركانه وحقوقه ومنها حفظ الأموال والأعراض، وابن زيدان كمن سبقه من المؤرخين يمزج في تحليله للعلاقة بين السلاطين والرعية ألفاظ الاستحقاق والواجب الشرعيين والفظ الغلبة السلطانية التي تبرز استعمال عبارات مثل "مهد البلاد" و" دوخ البلاد" ، والمرجع عنده وجوب الطاعة للحاكم ، وإذا ظلم وأثار الفتنة فهو يستحق مصيره إن لم يتغلب ، والسلطان هو الحكم في كل شيء ، وهو مستند إلى تقاليد " الجنوح للسلم" وتجنب استعمال العنف إذا كانت تغني عنه المفاوضة [1].

ويصف عبد الرحمان بن زيدان ويصور شخصية السلطان الحسن بقوله " وهذا وبالجملة ، فمن تأمل أعمال هذا السلطان الجليل بأن له سفه الرأي الملصق بجانبه ما لا يليق القائل بعدم قيامه بأعباء المملكة كما ينبغي وإهماله للاستعداد ، فقد رأيت أنه لما تولى لم يأل جهدا في تمهيد البلاد ، وتطمين العباد ، وتدارك الخلل ، وإزاحة العلل ، ونشر للأمن بين القبائل ، والحلل ، وتدريب الجيش ، وتحصين الثغور ، وجلب الذخائر ، وإنشاء المعامل ، وبعث الطلاب ، وتفقد المغرب من أقصى حدوده ...والاهتمام بالعلم والعلماء واستشارتهم ...مما يظهر للمنصف ولا يخفى إلا على المتعسف ."[2]

كما يقدم عبد الرحمان بن زيدان وصفا عن لجهود السلطان المولى الحسن الدبلوماسية بقوله " غير خاف ما كانت عليه السياسة الخارجية بهذه المملكة المغربية بعد حرب تطوان وما نشأ عنها من تدخل سفراء الدول في القضايا والوقوف للمخزن في أوعر المسالك وأضيق المئازق وتكثير المحميين

1- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق، ص:142.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق ،ج:1 ، ص،ص 5-8.

وتطاولهم على الحكام المخزنيين بأدنى علقة توصلهم لذلك وتفاحش الأمر إلى أن وصلت الحالة لدرجة كاد أن يتعذر معها تنفيذ أوامر المخزن في الرعية لعدم إمكان تعميمها بسبب الامتيازات المعبر عنها بالمصالح الأجنبية المخولة لهم بمقتضى الفصل التاسع والعاشر من معاهدة عم المترجم مولانا العباس المنعقدة مع الإسبان عقد الحرب المذكورة أيام والد المترجم السلطان سيدي محمد قدس الله أوراحهما ..."[1].

وهكذا تتبع عبد الرحمان بن زيدان التاريخ السياسي للملوك والسلاطين العلويين وسياستهم التي انتهجوها مع الرعية والدول الأجنبية من خلال العلاقات الدبلوماسية وما كان كن مجريات سيرورة كل الأحداث .

ب- التاريخ العسكري :

يتضمن تاريخ ابن زيدان معلومات مستقاة ن الكتب التاريخية والوثائق الرسمية عن جوانب متعددة مما يمكن أن نسميه بالتاريخ العسكري في عهد الدولة العلوية ، ويمكن أن تفرغ هذه المعلومات في أبواب منها ، المصادر البشرية للقوة العسكرية ، والنظام العسكري المخزني ، وآلات الحرب ، والعمليات العسكرية ، والجيش في سياق تطور الدولة والمجتمع [2].

ففي ما يتعلق بالمصادر البشرية للقوة المحاربة نجد العناصر المعروفة وهي العسكر التقليدي المجموع من القبائل بالاستنفار عند الضرورة ، والعسكر المتعاقد المتمثل في قبائل التي لها امتيازات والمتمثلة في اقتطاعات أراضي مقابل خدمات في الحراسة والشرطة والتدخلات الظرفية على الخصوص ، و " والعسكر النظامي " الذي كونه السلطان المولى إسماعيل ، وهو المعروف بالبخاري والذي قال فيه عبد الرحمان بن زيدان "أصدر مولاي إسماعيل أمره العالي لعبيده بالإتيان بمن بلغ من أولاده عشر سنين ، الذكور منهم والإناث ، فيفرق الإناث على نسائه بداره المصونة لتهذيب أخلاقهن والتأدب

1- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ....، المصدر السابق ، ج :2، ص:279.

2- أحمد التوفيق ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:158.

بالآداب السلطانية ، وتعلم أنواع الطبخ والحرف ، والبنائين والنجارين والحدادين والفلاحين ...ويلزمهم ركوب الحمير تدريبا لهم على الفروسية ، فإذا بلغوا الحادية عشرة من السن ألزمهم ركوب البغال التي تحمل الجير والآجر ولمباني قصوره الفخمة ، فإذا بلغوا الثانية عشرة ألزمهم بضرب المراكب وخدمة ألواح البناء تدريبا لهم على تحمل الأعباء الشاقة حتى لا تركن نفوسهم إلى العجز والكسل ...فإذا أكملوا الثالثة عشرة دفع بهم إلى الجندية وكساهم ودفع لهم السلاح واشتغلوا بالخدمات الجندية وتعلم فنونها..." [1].

كما يتحدث عبد الرحمان بن زيدان عن عسكر السلطان المولى الحسن بقوله " أما القوة العسكرية التي كانت عنده فإنه لما وجد القوة العسكرية المحمدية (قوة والده محمد بن عبد الرحمان) غير كافية ، إذ كانت مجموعة من طوابير مختلفة من الوصفاء الأقوياء الذين كان كبيرهم الوصيف الشهير ابن المزوار ، ومن أهل السوس الأقوياء الذين كان كبيرهم الحاج منو الشهير ، ومن غيرهم كطابور الحاج عزوز بن الفتوح والحاج محمد الزروالي وغيرهم ، أصدر أمره الشريف للعمال...وعين وزير العسكر الفقيه السيد محمد الصغير الجامعي للتوجه لدكالة للإتيان بما فرض عليهم وهو ألفان والله أعلم ، ومن الشاوية كذلك والرحامنة ومن قبائل الدير وعين لكل قبيلة منها ، زيادة على القبائل ورماتها التي كانت ترد أفواجا أفواجا ..."[2].

ويضيف ابن زيدان في إظهار ما تميز به السلطان الحسن الأول من مواصفات قائلا " وقد كان مهتما بأمر رعيته وتحسين قوتها العسكرية ، فقد كان يتفقد أبراج المراسي بنفسه ويأمر بالاهتمام بشأنها ، وقد عين أخيرا بكل مرسى مهندسا لمقابلة قوتها والطواف عليها والإخبار ... بالصالح منها

1- عبد الرحمان بن زيدان ، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل... ، المصدر السابق ، ص:131.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...،ج:2 ، المصدر السابق ، ص: 500.

والمفتقر للإصلاح ، وعندما يصل الإعلام بذلك يصدر الأمر الشريف بتنفيذه حالا ، وكان رحمه الله له اهتمام كبير بتفقد السلاح بفاس في غالب الأحيان بنفسه ..."[1].

ثانيا : التاريخ الاجتماعي :

يتناول التاريخ الاجتماعي على الخصوص الفئات الاجتماعية والعلاقات فيما بينها ، ولا سيما من جهة التفاوت ،سواء كان مقننا أو اصطلاحيا ، كما يتناول التطورات التي تؤدي إلى توزيع الثروة والنفوذ أو احتكارها من لدن تلك الفئات ، ولا يقوم امتلاك الثروة أو النفوذ على الرأسمال المادي وحده ، بل قد يستند أيضا إلى رأسمال رمزي سواء تولد عنه الاغتناء المادي أو أدى إلى سلطة معنوية فاعلة في التاريخ [2].

وإذا تعذر الكلام عن الطبقات في مجتمعات لم تدخل الرأسمالية كما هو الشأن بالنسبة للمغرب في تاريخه إلى بداية القرن التاسع عشر والعشرين ، فإن التفاوت في الأموال ثم الأقدار والاعتبار كان واقعا ، وترتب عن ذلك استعمال مصطلحين في السياق الإسلامي العربي عموما وهما مصطلح الخاصة ومصطلح العامة ، وتبين من دراسات اجتماعية تاريخية في هذا المجال ، بالرغم من قلتها ، أنه بالرغم من صغر حجم الثروة ، فإن التفاوت في الفقر ،هو ما يصدق على ثروات الأعيان قبل الرأسماليين ، له انعكاسات اجتماعية تمس وضعية الإنسان من حيث الاستلاب والتقييد بالولاءات [3].

إن قراءة مؤلفات ابن زيدان يتيح الخروج بأكثر من انطباع عن الوضع الاجتماعي كوضع يعمل فيه التفاوت ويعبر عنه ، ولذلك فلسنا أمام تاريخ لا يقبل كلية الكلام عن الاستغلال والصراع ، ولكن الأهم هو إدراك نوعه وطبيعته ومداه وآلياته ، يعيش المجتمع ذلك الوضع ولا يحلله من منظور القرن العشرين ، ولكن ينظر إليه كوضع طبيعي ، لأن ثقافته تسوغه ، وهي ثقافة تقر العدل ، ولكنه

1- نفسه ، ص: 500.

2-أحمد التوفيق وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص: 166.

3- نفسه :ص، ص:166-167.

عدل على مستوى الأفراد لا على مستوى المجتمع ، فلا مبرر لموقف جماعي وهو الأساس في التاريخ الاجتماعي ، والمقاييس في ذلك المنظور الثقافي هي مقاييس الخير والشر [1].

وعلى امتداد العصر الذي تناوله عبد الرحمان ابن زيدان يمكن تمييز تحقيب ثلاثي جزافي بدالة العلاقات مع الأجانب ، المرحلة الأولى فيه تمتد من بداية الدولة العلوية إلى منتصف عهد السلطان محمد بن عبد الله ، وتتميز باضطرابات اجتماعية لها أصل في حركات تاريخية للسكان وفي مشاكل داخلية حادة ، ومرحلة تمتد بعد هذه إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وشهدت تبرعم مشاكل اجتماعية جديدة ولكنها دفينة مرتبطة بأزمات مناخية وتحركات قبلية وتنامي مشاكل القرصنة وتزايد التجارة واستعمال النفوذ ، أما المرحلة الثالثة وهي تبدأ من منتصف القرن التاسع عشر فيرجع امتداد التوتر فيها إلى الضغوط التي تسبب فيها التدخل التجاري السلبي والدبلوماسي والعسكري للأوربيين بالمغرب ، وتأثير ذلك على تصرفات المخزن ومعيشة السكان في المدن والقبائل ، هي ملامح عامة معروفة لها أكثر من شاهد تلوين في صفحات التاريخ الكبير الذي كتبه ابن زيدان ، وهو لا يخفى توتره في كتاباته من جهة ما آل إليه عز الدولة الذي لا يفتأ يذكر به من وجهة الصدمات مع المجتمع وهو لا يفتأ يبررها ويجد لها وجوها في مراجعة الثابتة [2].

ولقد كان ابن زيدان مخضرما في عصره ، ولكن عقليته الاجتماعية ظلت ، تحت وضع آخر هو وضع الحماية الأجنبية " أرستقراطية " كما تبدو من قراءة تعاليقه على الوثائق ، وكأن القبائل التي ينعت أهلها بالأوباش والأجلاف وغلظة الطباع مسئولة في نظره إلى حد ما عن الذي وقع من سقوط المغرب تحت الاستعمار ، فالعوامل التاريخية معقدة وليس على السهل أن يهذب مصطلحاتها ابن زيدان ، فشكل تاريخه يتضمن عناصر جديدة ولكن مضمونه لا يختلف كثيرا عن مضمون وثائقه ، فالقراءة السياسية الاجتماعية الوحيدة للواقع هي التي توخاها مشروع الإصلاح الجبائي المسمى

1- مصطفى الشابي ، النخبة المخزنية...، المرجع السابق ، ص: 146.

2- أحمد التوفيق وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص: 168.

بالترتيب في بداية القرن على العهد العزيزي ، فقد اعترف بوجود تفاوتات على أساس امتيازات ممنوحة لبعض فئات الأعيان في مستوى الضريبة والخدمات التي يطالب بها العوام ، وقرر إلغاءها ، ولكن المشروع كان من إملاء جهات انجليزية ، فما فهم ولا كان له أن ينجح [1].

ومن النصوص التي استدل بها عبد الرحمان بن زيدان على الواقع الاجتماعي نذكر منها حديثه عن ثورة الدباغين بفاس بقوله " ...لما تقررت بيعة مولاي الحسن بعاصمة فاس أزيلت المكوس التي كانت موظفة على الأبواب والأسواق ، ومن جملتها ما كان يؤدي على بيع الجلد ، وكان الأمين المفوض في ذلك أبو عبد الله بنيس ...ولما تم نهب الدارين وهدأت الأصوات وتفرق معظم تلك الجموع ، اجتمع بين العشاءين الشرفاء الأدارسة وغيرهم من الأعيان وأتوا بنيس وأخرجوه من الحمام وجعلوه وسطهم كأنه واحد منهم ، توجهوا به للحرم الإدريسي "[2].

وقد تحدث أيضا ابن زيدان على أهل لجبال بقوله " قلت : وما وسم به أهل الجبال هو الشائع عنهم لحد الآن ، وخصوصا عن جبابرة رؤسائهم ، وأما التهور والمفاتنة فقد كان ذلك ديدنا شائعا في نواحي المغرب الأقصى ، وخصوصا عند أهل البدو من بربر ، إلى أن أخمدت جل ذلك جيوش الحماية ، وهذه السمات وأمثالها هي التي تأهلو بها بعد الإسلام للدخول تحت قوله تعالى (إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ...)[3] ، ولكنهم قد اتصفوا مع ذلك بسمات حسنة فيها السماحة المتقدمة في كلام ابن سعيد...ومنها غير ذلك من الفضائل التي امتاز بها المغرب على غيره وحفظها التاريخ ، وبمثل هذا تأهلوا بعد إسلامهم أيضا للدخول تحت قوله تعالى (...وإما أن تتخذ فيهم حسنا)".[4]

1- نفسه ، ص :169.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق ، ج:2، ص،ص:134،138.

3- الإشارة إلى القرآن الكريم ، سورة الكهف ، الآية 86، والكلام فيها عن ذي القرنين لما بلغ بلاد مغرب الشمس ووجد قوما منهم من ظلم ومنهم من آمن وعمل صالحا .

4- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق ، ج :1، ص: 70.

ثالثا : التاريخ الديني والقضائي :

قدم ابن زيدان في جميع ما كتب مجموعة من وثائق التاريخ الديني على العهد العلوي ، بالمعنى الواسع لهذا التاريخ الذي يشمل في هذا ذلك السياق جزءا أساسيا من التعليم ومن مبررات السلوك وتجلياته ومن الاختبارات المذهبية ونشاطات المؤسسات ومقتضياتها،وتوجد معلومات هذا التاريخ في تراجم العلماء والصلحاء كما توجد أخبار حوادث الأيام السلطانية وفي الوثائق الصادرة عن السلاطين [1]

لاتبرز الظاهرة الدينية كظاهرة تاريخية عند ابن زيدان إلا بشرط كتابه الذي يقوم على التراجم ، ولكن الواقعة إذا برزت فإنما تبرز في أعمال السلطان أو في العلاقة معه ، من خلال واجباته كأمير للمؤمنين ، عليه حماية بيضة الدين ، وتبرز علاقته الدينية مع الجماعات في مشاوراته للعلماء ، أو تعامله الإيجابي أو السلبي مع بعض الزوايا ، أو في رعايته لشؤون الأشراف ، وتأتي تدخلات ابن زيدان وفكرته في نظرته على اعتقاد مركزية السلطان في الشأن الديني أولا ، وفي غيره بعد ذلك [2].

وفي هذا الصدد يورد عبد الرحمان بن زيدان نموذج حي عن عهد السلطان محمد بن عبد الله من خلال عرض هذا الأخير مقتضيات أوامره إلى القضاة على فقهاء مصر لينظروا فيها حتى يبينوا له ما هو صواب ويثبتوه بوضع خطوط أيديهم ويوضحوا له ما هو خطأ فيها ، وأرسل إليهم تأليفا له سماه "اختصار الحطاب " ، يريد منهم أن يطالعوه ، وتكمن وراء أعمال السلطان محمد بن عبد الله في هذا الميدان شخصية العلمية التي تتوفر مادتها التاريخية في ما أورده عنها ابن زيدان بقوله " فإن أمرناهم ألا يدرسوا إلا كتاب الله بتفسيره و كتاب دلائل الخيرات والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كتب الحديث المسانيد والكتب المستخرجة منها والبخاري ومسلما وغيرها من

1 – أحمد التوفيق ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:175.

2– أحمد التوفيق ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص : 176.

الكتب الصحاح ، ومن كتب الفقه "المدونة " " والبيان"و "التحصيل" و"مقدمة" ابن رشد" و"الجواهر " لابن شاس " و" النوادر " و "الرسالة" لبن أبي زيد وغير ذلك من كتب الأقدمين ..."[1].

وهنا يستعرض ابن زيدان الحياة العلمية الدينية والقضائية في الفترة العلوية ويأتي بنماذج حية ، لمساهمة بعض السلاطين العلويين ، وما تميزت به فترة كل السلاطين الذي كان حديثه عندهم ، وترجم لهم ولأخبارهم ومنجزاتهم وغير ذلك .

في ختام هذا الفصل يمكن القول بأن عبد الرحمان بن زيدان لم يكن له في بادئ تنشئته اهتمام خاص بميدان التاريخ ولكن بدأ يتبلور هذا الاهتمام شيئا فشيئا بعد خوض غمار التأليف في غمار التأريخ للدولة العلوية ، ليجد ابن زيدان نفسه قد خاض في الكتابة التاريخية للدولة العلوية واليت كانت بمثابة السلطة الحاكمة في تلك الفترة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وقد ساهم في كتابة مفاخر هاته الدولة العلوية من منجزات سلاطينها وتمجيدهم والإعلاء من شأنهم ، وقد كتب عنهم بصفة ذاتية تدل على أن ابن زيدان بحكم انتمائه للأسرة العلوية يميل إلى الذاتية بدل الموضوعية في جل مؤلفاته الخاصة بالتأريخ للدولة العلوية .

1- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق ، ج: 3، ص،ص:212-213.

الفصل الثالث: مؤلفات عبد الرحمان بن زيدان عن تاريخ الدولة العلوية

المبحث الأول : كتاب "إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس"وأهميته في التأريخ للعاصمة الإسماعيلية مكناس

المبحث الثاني : كتاب "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين"وأهميته في التأريخ لحركة التأليف التاريخي بالدولة العلوية

المبحث الثالث : كتاب "المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل"وأهميته في التعريف بالسلطان إسماعيل

المبحث الرابع : كتاب "العلائق السياسية للدولة العلوية " وأهميته في كتابة التاريخ السياسي والدبلوماسي للدولة العلوية

ألف عبد الرحمان بن زيدان كتبا كثيرة في التاريخ ، وشغل جل وقته بالتدوين والكتابة ، فكان ما خصصه للشأن التاريخي وخاصة ما تعلق بالتاريخ العلوي بمؤلفات كثيرة تحدثت عن الجانب السياسي في كتابة هذا التاريخ ، ذلك لأن ابن زيدان مؤرخا وبالتاريخ عرف ، وساهمت مؤلفاته التاريخية في ازدهار التدوين التاريخي خصوصا عهد الحماية ، وكان لها تأثير مباشر في إلهام باقي مؤرخي المرحلة ،ودفعهم إلى التنافس في كتابة تواريخ بلدانهم ، فأثمر ذلك كما هائلا من الأعمال التي تعد مادة أولية محضة خصوصا ما تعلق بتاريخ المغرب الأقصى في الفترة المعاصرة .

المبحث الأول : كتاب "إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس"وأهميته في التأريخ للعاصمة الإسماعلية مكناس .

أولا : التعريف بالكتاب

أول كتاب ألفه عبد الرحمان بن زيدان ، وأول أعماله في التاريخ طبع بين سنتي 1929م و1933م في المطبعة الوطنية ، ثم أعيد طبعه مرة ثانية بإيعاز من الملك الحسن الثاني عام 1990م ، بتقديم الأستاذ عبد الهادي التازي ، وأعادت طبعه في المرة الثالثة مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ودار الأمان بالرباط عام 2008م[1]، وقد كان هذا الكتاب أهم مؤلف لأنه احتوى على علوم شتى تاريخية وأدبية ودينية ، مع إحسان فن التراجم والتبويب وسوق الاستطرادات المفيدة في مكانها والفوائد الرائقة في مواضعها[2] .

طبع من كتاب إتحاف أعلام الناس خمسة أجزاء ، بينما ظل قسم آخر مخطوطا ، وقد ذكر المؤرخ محمد داود " أن الباقي منه بدون طبع ما يقرب من ذلك "[3]، كما ذكر ابن سودة أن الإتحاف يقع في

1- خالد طحطح وبكور محمد ، مؤرخون مغاربة... ، المرجع السابق ، ص:202.

2- مصطفى الشابي ، النخبة المخزنية ...، المرجع السابق ، ص : 13.

3- محمد داود ، تاريخ تطوان ، مطبوعات معهد مولاي الحسن ، تطوان ،1959، ج:1، ص33.

ثمان أسفار "طبع منه خمسة ...والباقي مازال تحت الطبع " ، إذ لا يعرف منه سوى قطعة بها 81 صفحة[1] .

كما يندج كتاب "إتحاف أعلام الناس..." ضمن التاريخ المحلي ، حيث اتخذ من مدينة مكناس منطلق الكتابة ، وعلى عادة المؤرخين القدامى وضع المؤلف أكثر من اسم لكتابه ، فسماه أيضا ضمن محاضرتين ألقاهما بعنوان كملخص لما جاء في الكتاب : "عبير الآس من روض تاريخ مكناس" ، أو "حسن الاقتباس من مفاخر الدولة العلوية وتاريخ مكناس[2] ".

ثانيا : محتوى الكتاب

يحتوي كتاب" إتحاف أعلام الناس" على مقدمة في علم التاريخ ومبادئه ، جزء أول منه في تاريخ مكناس والقبيلة المؤسسة لها، والثاني في وصف المدينة شعرا ونثرا بأقلام المتقدمين والمتأخرين ، أما الجزء الثالث فخصصه لتراجم أعلامها من السلاطين والأمراء والأعيان والعلماء بينما خصص ابن زيدان الجزء الرابع لحوادث خاصة وقعت بمكناس وللحرف والصنائع القائمة بها [3].

خصص ابن زيدان الجزء الثالث من كتاب إتحاف أعلام الناس لتعريف بالسلاطين والأمراء والأعيان والعلماء والقضاة وغيرهم من الأعلام ، وقد تطرق إلى تراجم السلاطين العلويين بتفصيل كبير مقارنة مع باقي التراجم الأخرى ، فمن أصل 553 ترجمة ضمها الكتاب ، وسعت اثنتي عشرة ترجمة لسلاطين الدولة العلوية نصف صفحات هذا الجزء تقريبا ، ولذلك كان مضمون الكتاب يطرح أكثر من سؤال ، إذ الظاهر أن ابن زيدان قصد تاريخ السلاطين العلويين أكثر من غيرهم ،فلماذا اختار النمط المحلي في الكتابة التاريخية "هل هي مجرد ضرورة أملاها النوع الأدبي التاريخي "، كما يرى المؤرخ أحمد التوفيق ؟ أم أن المؤلف قصد الأول كالتأريخ لمدينته في إطار المفاخر والمنافسة مع المدن الأخرى خصوصا

1- خالد طحطح ومحمد بكور ، المرجع السابق ،ص : 202

2 - نفسه ، ص: 202.

3- عبد الرحمان بن زيدان ، معجم طبقات المؤلفين ...، المصدر السابق ، ص: 42.

فاس التي وضع لها شيخه محمد بن جعفر الكتاني كتاب "السلوة" ، ثم لما جمع المادة المصدرية توفرت لديه مواد كثيرة متعلقة بسيرة السلاطين فتوسع في تراجمهم [1].

ويعد كتاب الإتحاف بحق تاريخا للدولة العلوية ومنجزاتها ، ولذلك حظي باحتفاء كبير لدى الجميع ، سواء الأوساط الوطنية والأجنبية ، ومن الغريب أن تستقبل السلطات الاستعمارية والشباب الوطني نفس العمل بدرجة عالية من والاهتمام ، فقد قام الجنرال ليوطي المقيم العام بالمغرب إبان فترة الحماية بتقديم الكتاب ، شكر فيها المؤلف وحياه ونوه بتعاونه في العمل المشترك بين حكومة المخزن والحماية لترقية المغرب الذي لا يزيد إلا قوة ورفاهية ، وبعد صدور الجزئين الأولين أقيم للمؤلف حفل تكريمي بالدار البيضاء يوم 8 من أفريل 1931م ، شارك فيه عدد كبير من موظفي المخزن وإدارة الحماية ، إلى جانب بعض العلماء والأدباء ، كما نال الكتاب جائزة المجمع العلمي الفرنسي ووسامة عام 1933م ، وجائزة المغرب للأدب عام 1936م[2].

والظاهر أن ما كتبه ابن زيدان لم يكن ليزعج سلطات الحماية مادام مشروع الاحتلال قد بني على حماية النظام القائم ، وتعزيز سلطاته في وجه الفوضى المستمرة ، فمشروع المؤلف في استرجاع الماضي ستهدف قضيتين متناقضتين ، الإشارة بماضي جهاز الحماية وإثبات عراقة الدولة العلوية في نظمها وعوائدها التي تجسد أرستقراطية راقية من جهة ، وإدانة ماضي آخر تمثله الفتن والثورات ، وتجسده الأطماع الشخصية لفئات عديمة الشرف والأمانة ، وهو ما كان ينسجم مع ظاهر الخطاب الاستعماري آنذاك [3].

1- سعيد بنسعيد العلوي وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص: 104.

2- نفسه ، ص، ص : 268،267.

3- عمر علي في مقدمة تحقيقه لكتاب "إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس" لعبد الرحمان بن زيدان ، ،المصدر السابق ،ص: 18.

أما الشباب المتحمس للفكرة الوطنية فقد كان يتلقى صدور أجزاء الإتحاف بفرح وابتهاج ويسارع إلى اقتنائه أو استعارته ،خاصة تلك الأجزاء المتعلقة بسلاطين المغرب ، التي صاغها المؤلف في قالب يثير في النفوس شعورا بالمجد التليد ، وفخرا بعراقة التاريخ وأصالته وهم بذلك كانوا يبحثون عن أصول متينة تعيد بناء هوية مفقودة [1].

سلك ابن زيدان في كتابه الإتحاف مسلك لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة ، فقدم للكتاب بنظرة تاريخية عن مسقط رأسه مكناس ثم أتبعها تراجم يزيد عددها عن خمسمائة لأعلام من السلاطين والأمراء والوزراء والصلحاء وقواد المدن والقبائل والجيش والكتاب والشعراء ممن نشأوا بهذه المدينة أو حلوا بها في يوم من الأيام ، وفي هذا الجمع تكمن أهمية الكتاب بالنسبة للباحث المهتم بتاريخ المغرب عامة وبالعصر العلوي خاصة ،وقد كان تقسيمه للكتاب، فجعل لكل جزء ستة فهارس تسهل مراجعته والإفادة منه وجاء برنامجه على النحو التالي :

1- مقدمة قواعد التاريخ
2- تأسيس مدينة مكناس
3- وصف مدينة مكناس وميزات موقعها
4- تراجم الأعلام والسلاطين والعلماء والوزراء

أما ترتيب ذكر الأعلام فقد اتخذه المؤلف على أساس الأبجدية العربية وينتهي آخر الأجزاء المطبوعة ، وهو الجزء الخامس عند حرف القاف [2].

وكانت أبواب أو مضامين الإتحاف كما أوردها ابن زيدان من مقدمة خاصة بمبادئ التاريخ واحتوت تقريبا على ثلاثة عشرة صفحة تقريبا كلها ، تحدث فيها المؤلف عن تعريف التاريخ وماهيته ومبادئه وقيمة التاريخ كعلم قائم بحد ذاته ، والتحقيب الذي جرى عليه تقسيم التاريخ من قديم وحديث

1- عبد الوهاب بنمنصور في مقدمة تحقيقه لكتاب ، العز والصولة ،لعبد الرحمان بن زيدان ، ، المصدر السابق ، ص : أ.
2- مصطفى الشابي ، النخبة المخزنية ... ، المرجع السابق ، ص :14.

، واستند إلى أراء المؤرخين في فن التاريخ ، وبعض الآيات القرآنية على القصص القرآني وغيرها من الآراء التي أدلى بها ابن زيدان في مقدمته وتعريفه لمبادئ التاريخ [1].

أما الباب الأول من الإتحاف الذي تعرض فيه عبد الرحمان بن زيدان إلى الحديث عن اختطاط مدينة مكناس ، وتطرق فيها إلى كل ما يخص حاضرة مكناس وما يتعلق بها وقد جاء هذا الباب تقريبا في حوالي مائتي صفحة كلها تتحدث عن الحاضرة التي نشأ بها المؤلف وكانت مسقط رأسه ، وأدرج ما قيل من طرف المؤرخين القدامى عن حاضرة مكناس واستشهد ابن زيدان بقوله " وقد صرح ابن غازي المكناسي المتوفي سنة 910هـ بأن المدينة المسماة بمكناسة في زمنه إنما أحدثها المرابطون بعد ظهور الموحدين ، وأول الموحدين ظهورا المهدي بن تومرت ، وهو إنما دخل عاصمة المرابطين مراكش في صفة ناسك قبل الإمارة عام أربعة عشر وخمسمائة كما قال غير واحد منهم علي بن محمد بن عمر بن أبي زرع من أهل المائة الثامنة في كتابة الأنيس المطرب "[2]، وهذا دلالة على عراقة مدينة مكناس حسب ما أورده ابن زيدان من ما تناوله المؤرخون الذين كتبوا عن هذه المدينة في حقب ماضية ، كلها كانت تصب في وعاء واحد وهو مدينة مكناس وما كان بها في تلك المراحل التاريخية وصولا إلى عصر المؤلف عبد الرحمان بن زيدان .

والباب الثاني الذي تناول فيه ابن زيدان النعوت التي قيلت في مدينة مكناس[3] ، وقد احتوى تقريبا على ستين صفحة ، جاءت فيها كل الأقوال التي قيلت في عراقة هذه الحاضرة وما حوته من علماء ومكانة علمية جعلت الكثير يقول فيها من المدح والنعوت ويصفونها بمعاني عديدة ، و يذكر ابن زيدان مما قيل عنها " قال في (الروض) : نقل عن ابن الخطيب السلماني في وصف هذه البلدة في كتابه (نفاضة الجراب) ما صورته وأطلت مدينة مكناسة في مظهر النجد ، رافلة في حلل الدوح ، مبتسمة عن شنب المياه العذبة ، سافرة عن أجمل المرأى ، قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى ، قيد البصر ،

1- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق ، ج:1 ،ص،ص: 29،30.

2- نفسه ، ص:51.

3- محمد المنوني ، مؤرخ مكناس ابن زيدان ،المرجع السابق ، ص :96.

وفذلكة الحسن ، فنزلنا بها منزلا لا تستطيع العين أن تخلفه حسنا ووضعا ، من بلد دارت به المجاشر المغلة ، والتفت بسورة الزياتين المفيدة ، والتفاف شجرة ، ونباهة بنية ، وإشراف ربوة ".[1]

واستمر عبد الرحمان بن زيدان في إيراد ما قيل في حاضرة مكناس من نعوت وأسماء وصفات حتى بلغ به ذلك إلى الإتيان بأبلغ النعوت الدالة على ذلك ، لإبراز المكانة التي تصدرتها مكناس بحكم انتماء ابن زيدان إلى هذه المدينة .

وتناول ابن زيدان في الباب الثالث من كتاب "إتحاف أعلام الناس ..." تراجم رجالها و أضاف لهم رجال مدينة زرهون ،من السلاطين والعلماء والأمراء والأعيان، وبلغ عدد التراجم حوالي 553 ترجمة ،بينما تبقى التراجم الأخرى ضمن القسم المخطوط ، وقد سلك ابن زيدان في ترتيب ذكر الأعلام ترتيب الحروف الأبجدية وانتهى عند أخر ترجمة في الجزء الخامس من كتاب "إتحاف أعلام الناس ..." عند حرف القاف ، وكانت الترجمة تخص علم من أعلام مدينة مكناس وغيرها من رجالات زرهون ، تطرق ابن زيدان إلى المولد والنشأة والمكانة العلمية التي حازها الشخص المترجم له ، ومآثره ، ومنجزاته ، ودروه ، ومفاخره ومؤلفاته وغيرها ،كلها جاءت على نسق واحد ، واستشهادات وتبيان محاسن المترجم لهم خصوصا ما تعلق برجالات الدولة العلوية من سلاطين وغيرهم[2].

وكان لابن زيدان صلة القرابة بهؤلاء التراجم،إما من بعيد وقريب ومثاله على ذلك ترجمته لسلطان أحمد الذهبي ابن السلطان إسماعيل العلوي الذي يصفه بأجل الصفات "أحمد الذهبي السلطان أبو العباس أحمد الذهبي بن فخر ملوك المغرب وأعظم سلاطينه سيدنا الجد مولانا إسماعيل بن الشريف الحسني العلوي ، كان جوادا كريما شفيقا حليما ، وكل صدر من الشدة والقساوة وقتل الأنفس في دولته فبإلزام من العبيد وإكرامه له على فعله ، وقد كان قيد حياة أبيه ساعيا فيما يرضي ظاهره ، استخلفه

1- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق ، ص :276.

2- محمد المنوني ، ابن زيدان مؤرخ مكناس،المرجع السابق ، ص :96.

والده بقطر تادلا وغيره حسبما أوضحنا ذلك في "المنزع اللطيف" ولم يسمع عنه ما يريب مدة تقلباته في أطوار الخلافة على والده ، وسيرة مبسوطة بوافر العطاء الشامل للقاضي والداني"[1].

يواصل المؤلف ترجمته للأعيان والأمراء والسلاطين على نفس النسق ، وبنفس الطريقة التي انتهجها في بادئ ترجمته مراعيا في ذلك الترتيب والإيجاز .

في الباب الرابع من كتاب" إتحاف أعلام الناس ..." تناول فيه بن زيدان حوادث خاصة وقعت بها في الحرف والصنائع القائمة بها وأخلاق أهلها وعاداتهم ، كما تحدث فيه عن ما كان في منكاس من أشياء تميزها عن بقية الحواضر الأخرى .

ثانيا: منهج ابن زيدان في كتابه "إتحاف أعلام الناس... "

وكان ابن زيدان يختم كل جزء من أجزاء كتابه بفهارس متعددة الأولى ضمت التراجم والثانية الأعلام التاريخية والثالثة الأعلام الجغرافية والرابعة للأعلام عامة والخامسة للوثائق التاريخية وهذا في الجزئين الأول والثاني ، والسادسة للكتب والسابعة للصور وجداول توضيحية، وكان الذي أشرف على تصحيحه وفهرسته هو العلامة الجليل عبد الكريم ابن الحسني الحسني ، الذي صدر الجزء الأول بمقدمة عن تواريخ المغرب ، وقد أثارت هذه المقدمة إعجاب شكيب أرسلان ، فقال في كلمة كتبها عن " إتحاف أعلام الناس..." ونشرها في جريدة "كوكب الشرق" الصادرة عام 1349هـ[2]، وقد سهل تذيله للفهارس وللقارئ تصفح كتاب الإتحاف واستعماله بشكل واضح .

1- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس... ، المصدر السابق ،ص، ص: 313،314 .

2- محمد المنوني ، ابن زيدان مؤرخ مكناس ، المرجع السابق ،ص :97.

أما منهج عبد الرحمان بن زيدان في كتابه الإتحاف فإنه يضيف إلى نهجه لأسلوب كتاب التراجم والحوادث ، مع بعض التجديدات ويمكن إرجاعها إلى ثلاث مميزات[1] :

- الأولى : إثبات نصوص الوثائق التاريخية من ظهائر وما إليها ، وبهذا حفظ من الضياع الكثير من الظهائر والرسائل والرسوم العدلية والنقوش الأثرية .
- الثانية : أنه يوضح بالكثير من الصور الفوتوغرافية للوثائق المهمة وبعض الأعلام والآثار الواردة بالكتاب .
- الثالثة : الاستعانة بالترجمة من المصادر الأجنبية .

وسلك ابن زيدان نهج أصحاب التراجم في كتابة التاريخ لأنه عندما يؤرخ لسلطان من سلاطين الدولة العلوية يذكر الحوادث بحسب السنين على غرار سابقيه مثل أحمد بن خالد الناصري في كتابه الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الذي يكفي بذكر الحوادث وحدها مثال ذكره للأحداث التي وقعت خلال فترة حكم السلطان محمد بن عبد الرحمان قائلا "...عرفت الحكومة المغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تغيرات مهمة ...فقد عرف عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان وقائع دفعت بالبلاد في هذا الاتجاه كان من أبرزها تلك المعاهدة المغربية الإنجليزية المعروفة بمعاهدة التجارة والملاحة التي وقعت عام 1856،كما أسهمت في تعقيد هذه الظروف حرب تيطوان(1859-1860)حيث شنت إسبانيا على المغرب عدونا كانت عواقب وخيمة على أحواله المالية والاجتماعية والسياسية "[2].

1- نفسه ، ص: 97.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...،المصدر السابق، ج:3 ، ص:379.

تميز أسلوب ابن زيدان في كتابه الإتحاف بالسلاسة وعدم التكلف في استعمال المصطلحات فمقارنته بأسلوب "أحمد بن خالد الناصري" في كتابه "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" ، أقل سهولة منه ، وقد عبر عن أفكاره بتعابير لاغموض فيها سهلة ومفهومة عند الجميع وذلك من خلال ذكره لبعض الألفاظ والتي كان يقدم لها تعريفا تسهيلا على القارئ والباحث من ذلك قوله " ...الوزير الأعظم كان لقب الوزير الأعظم يطلق على الوزير الأوحد في الجهاز المخزني ..."[1] .

ويعتبر كتاب " إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس " أهم مؤلفات عبد الرحمان بن زيدان التاريخية ، وقد رجع إلى مصادر عديدة ومتنوعة في العلوم الدينية والتاريخ والتراجم والفهارس مثل كتاب "العبر لابن خلدون" "وروض القرطاس" لابن زرع ونشر المثاني للقادري "ونفح الطيب "للمقري "والروض الهتون" لابن غازي و"الاستقصا" للناصري "وعجائب الآثار في التراجم والأخبار" لعبد الرحمان الجبرتي "وسلوة الأنفاس" لمحمد بن جعفر الكتاني و"ممتع الأسماع" لابن عيسى المهدي الفاسي و"مرآة المحاسن" للعربي بن الشيخ أبي المحاسن الفاسي و"ابتهاج القلوب" لعبد الرحمان الفاسي ، ويعطي عبد الرحمان بن زيدان ، كما فعل لسان الدين الخطيب ، في كتابه " الإحاطة في أخبار غرناطة" ، نظرة تاريخية عن مكناس،ويأتي بما لايقل على خمس مائة ترجمة لشخصيات مختلفة ، من سلاطين ، والأمراء ، وقواد الجيش والوزراء ، والشعراء والعلماء وكبار أرباب الزوايا ، الذين نشأوا بالمدينة أو أقاموا بها ، مما يضفي على الكتاب صبغة هامة لمعرفة تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي والفكري على عهد الدولة العلوية [2].

وقد عبر ابن زيدان عن أفكاره بطريقة جريئة في ميدان الشؤون السياسية والاجتماعية ، وعرض للتاريخ المحلي لمدينة مكناس وما كان فيها ، وإن كانت هذه الأفكار في مجملها عرض لمحاسن الدولة العلوية ودفاعا عن منجزاتها ، ما يدل على أنها ذات بعد سياسي عميق من حيث أنها توضح ما كان غامضا في ذلك ، وأحيانا يؤدي إعجاب عبد الرحمان بن زيدان المفرط بذوي الجاه والنفوذ وإصدار

1- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق ، ج:5، ص: 224.

2- مصطفى الشابي ، عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا سياسيا ، المرجع السابق ، ص :140.

أحكام فيها كثير من العلو كما نلمس ذلك عند وصفه لبعض الآثار ، ولا يظهر ابن زيدان روحا نقدية خاصة إذا تعلق الأمر بحياة الصلحاء ومناقبهم إذ يتقبل المعجزات والخوارق المنسوبة إليهم ولا يشك في صحة وقوعها [1].

رابعا : أهمية الكتاب

وتكمن قيمة كتاب "إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس" في كونه يطرق باب القضايا التي كانت في تلك الفترة خصوصا ما تعلق بفترة الحماية ، وكذا الذود عن قيمة وعراقة الدولة العلوية والحديث عن مفاخر سلاطينها وانجازاتهم ، وعراقة مدينة مكناس وما حوته هذهالمدينة من تاريخ يحكي عن نفسه ، وقد وظف ابن زيدان كل ما جاء به المؤرخون عن مدينة مكناس وعاداتها وتقاليدها وسكانها ونظم الحكم فيها وكل ماله علاقة بذلك استحضره ، وضمته في طيات كتاب الإتحاف.

كان عبد الرحمان بن زيدان في كتابه الإتحاف يحيد عن الموضوعية أحيانا، وذلك من خلال نظرته إلى سلاطين الدولة العلوية وإعجابه بهم ،وإجلالهم وإكبارهم ، بحيث يغدق عليهم بالأوصاف التي غالبا ما تكون بعيدة عن ما يقوم بتحليله هو عن أمور التاريخ ويصف بها من يسلك طريق التاريخ والتأريخ ، فمثلا في تعريفه للمولى إسماعيل يذكر " هو بهجة المملكة وعضدها والساعد ،وفخر سلاطين البسيط وأعدلهم وأتقاهم وأزكاهم وأذكاهم أبو النصر واليمن والإقبال الذي أطفأ الله بسيف عدله نيران الفتن والأهوال سيدنا الجد الأعظم مولانا إسماعيل بن الشريف"[2].

وكان غرض عبد الرحمان بن زيدان من كتابه" إتحاف أعلام الناس ... " هو سعيه إلى تفنيد الأقاويل التي تم ترويجها خصوصا من المنظرين والمدافعين عن منظومة الحماية وأفكارها ،ونشر أفكاره في

1- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق ، ج:2، ص،ص : 114،115.

2 – عبد الرحمان بن زيدان ، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ،تق: عبد الهادي التازي ،الدار البيضاء ، مطبعة إديال،ط:1 ، 1993، ص:23.

الأوساط المغربية وخارجها وقد نجح في ذلك من خلال تحديد الاعتبار للدولة العلوية بعدما أراد نظام الحماية طمسها ،والنظر إليها بنظرة الاستصغار .

وختاما لدراسة كتاب الإتحاف يعتبر هذا الكتاب بمثابة التاريخ المحلي لمكناسو الذي أرخ لحاضرة وعاصمة علوية وما كان فيها ، من نظم وعادات وتقاليد وعلوم وما إل غير ذلك.

المبحث الثاني : كتاب "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " وأهميته في التأريخ لحركة التأليف التاريخي بالدولة العلوية

أولا : نسبة الكتاب لمؤلفه عبد الرحمان بن زيدان

وفي إطار التدوين التاريخي كان لابن زيدان إنجاز آخر هو مؤلف " معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " ، وهو أن ابن زيدان أراد أن يخص تراجم المؤلفين الفقهاء والعلماء وغيرهم في أعماله التاريخية ، وخصوصا منها "الإتحاف" وذلك باعتبار هذه التراجم شكلا من أشكال تدوين التاريخ الثقافي ،ويعكس المعجم ، بالإضافة إلى ذلك ، بحث ابن زيدان عن أفق مغاير لكتابة التراجم ، حقق من خلاله اختلافا ، من حيت بنية الترجمة ، عن عدد من سابقيه أو من جيله المهتمين بالتأليف في هذا المجال [1] .

يغطي " معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " جانبا من مصنفات 385مؤلف ، عاشوا مابين القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي إلى فترة حياة ابن زيدان ، الممتدة إلى منتصف العقد السادس من القرن الرابع عشر الهجري الموافق للعقد الرابع من القرن العشرين الميلادي ومنهم من عاش بعد وفاته ويشمل المعجم 1712 عنوان في مختلف مجالات الإنتاج سواء تعلق الأمر بالفقه وأصوله ، أو الأدب ،أو اللغة والبلاغة ،أو التاريخ ، أو الحساب والهندسة والفلك ، أو المنطق ، أو الطب أو غيرها ، وتتوزع المصنفات على عدد أكبر من المخطوطات ، اعتبارا لطبيعة المرحلة التي شملها المعجم ، وعلى عدد من المطبوعات الحجرية ، سواء تعلق الأمر بالمؤلفين الذي شملهم ، أو بمصنفات كل مؤلف على حدة ، كما لا يحمل المعجم أية إشارة إلى تاريخ كتابته ولا الانتهاء منه [2].

عنوان الكتاب أثبته ابن زيدان في الصفحة الأولى من كتابه ، عنوان " معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " مشيرا تحته إلى مسؤوليته العلمية "جمع خديم العلم والتاريخ عبد الرحمان بن زيدان "

1- عبد الرحمان بن زيدان ، معجم طبقات المؤلفين ... ، المصدر السابق ، ص:56.

2- نفسه ،ص:60.

وبناءا على ذلك ، يكون العنوان المشار إليه هو الذي اعتمده ابن زيدان ، ويعود هذا الأخير ، في صفحة أخرى من مؤلفه إلى اقتراح عنوانين آخرين ،هما " طبقات العلماء أهل التصنيف من رعايا الملوك ابتداء من علي الشريف "، " وطبقات المؤلفين من علماء دولة العلويين " وينسجم ذلك مع تقاليد المؤلفين السابقة على مستوى إثبات عناوين مصنفاتهم والقائمة على اقتراح أكثر من عنوان ، وهو ما نهجه ابن زيدان نفسه في كتابه " الإتحاف"[1].

وتختلف المصادر في إثبات عنوان معجم ابن زيدان ، والأكثر من ذلك وجود تضارب في صياغة العنوان على مستوى المصدر الواحد ، حيث أورده ابن سودة في مكانين مختلفين " معجم طبقات المؤلفين في عهد دولة العلويين" و"المؤلفون والمؤلفات على عهد الدولة العلوية" ، والغالب أن هذا الاضطراب يعود إلى عدم عودة أغلب أصحاب المصادر إلى نسخة المؤلف الوحيد ، وهو ما يؤكده عدم اعتماده ، خارج حالات معدودة جدا ، كمصدر لتراجم الأعلام رغم أهميتة [2].

وتجمع مختلف المصادر التي ترجمت لابن زيدان على إيراد "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين "ضمن مؤلفاته ، وتتأكد أيضا نسبة المؤلف لابن زيدان بقرينة المسؤولية العلمية التي أثبتها هذا الأخير من خلال إشارته الواردة في المؤلف "جمع خديم العلم والتاريخ عبد الرحمان بن زيدان "، ولا تنفي أن هذا المؤلف هو لابن زيدان و استكتاب المؤلف لآخرين بهدف إعداد بعض التراجم ، كما يرتبط جانب من ذلك بتقاليد التأليف في هذا المجال ، اعتبارا لطبيعة الكتابة التاريخية كشكل يعتمد أساسا على المعلومات ، التي تشكل تكليف شخص ، أو أشخاص بتجميع بعضها جزءا من وسائل ضبطها الببليوغرافي [3].

1- عبد الرحمان بن زيدان ، معجم طبقات المؤلفين ...، المصدر السابق، ص : 60.

2- ابن سودة المري بن عبد السلام ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، بيروت ، دار الفكر ، 1997، ص: 184.

3- أحمد التوفيق وسعيد بنسعيد العلوي وعباس الجراري ،عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:250.

وتستند هذه الفرضية إلى ثلاثة اعتبارات أساسية :

يرتبط أولها بتعدد خطوط "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " واختلافها عن خط ابن زيدان ، كما يبدو من خلال نماذج توردها بعض المصادر، ويشمل هذا التعدد ليس فقط الجزء الذي تم تبيضه ولكن أيضا بقية المعجم المسودة ، ويتجلى الاعتبار الثاني الذي يشكل امتدادا ونتيجة لسابقيه في وجود عدد من التراجم المكررة ، المكتوبة بخطوط مختلفة ، والتي يحتوي عدد منها بتباينات على مستوى إثبات المعلومات ، سواء تعلق الأمر بمستوى الدقة أو الزيادة ، أما الاعتبار الثالث فيتجلى في كون مجمل ما جاء في كتاب "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين "هي بخط ابن زيدان ، ويعني ذلك أن ابن زيدان كان يحرص على العودة إلى معجمه من أجل تدقيق معلومات ما أو إضافة أخرى [1].

ثانيا : حركة التأليف التاريخي في العهد العلوي

يندرج "معجم طبقات المؤلفين" في إطار حرص ابن زيدان على الترجمة كجزء من كتابته التاريخية، وينسجم ذلك مع تصوره للتاريخ ، حيث يعرفه ، في مقدمة كتابه "الإتحاف" باعتباره " لغة تعيين الوقت مطلقا ، وعرفا ، وعلما يبحث عنه عما مضى في سالف الدهور وعن أحوال المتقدمين من الأمم وأسماء المشاهير منهم ومعرفة أزمنتهم وأمكنتهم وسيرهم وعوائدهم وما يتعلق بحياتهم ووفياتهم "[2].

كما أنه تضمن تراجم المؤلفين على عهد الدولة العلوية مرتبة على حروف المعجم ، وقد كان ابن زيدان يمهد لهذا المشروع بإعداد بطاقات مختلفة الأحجام والخطوط حتى بلغت كمية مهمة ، من بينها تراجم لم تدون بعد لمؤلفين معاصرين [3].

1- عبد الرحمان بن زيدان ، معجم طبقات المؤلفين ... ، المصدر السابق ،ص،ص : 63-64.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق ، ج:1، ص: 30.

3- عبد اللطيف الشاذلي ،في تحقيقه لكتاب ، العلائق السياسية للدولة العلوية، عبد الرحمان بن زيدان ، ، المصدر السابق ، ص:18.

يشكل تصور ابن زيدان امتدادا لأعماله في كتابة التراجم ضمن مجالات الكتابة التاريخية الصرفة ، وهو تصنيف يستند جانب منه إلى شيوع توظيف التراجم والمناقب في التدوين التاريخي للمراحل التاريخية عبر التدوين لرجالاتها ، سواء كانوا سلاطين أو علماء أو فقهاء أو أولياء أو غيرهم ، وكان هذا التوظيف يندرج ضمن ما اكتسبته كتب التراجم من أهمية كمصدر معلومات أساسا للكتابات التاريخية ، ويذهب ليفي بروفنصال بقوله إلى أنه "لولا كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان والديباج المذهب لابن فرحون، مثلا لظلت زمرة وافرة من أمجاد الإسلام مجهولة مغمورة ، ولولا ما حفظته لنا يد الدهر من كتب التراجم والسير والطبقات التي جادت بها قرائح أدباء الأندلس وأقبل على دراستها علماء أوربيون لبقينا في غفلة عن جوانب ثرية من التاريخ السياسي والأدبي الخاص بالدول الإسلامية التي تعاقبت في الجزيرة الاسبانية [1].

وانعكست هذه الأهمية التي حظيت بها كتب المعاجم والتراجم ، على مستوى الأعمال التي أنجزت خلال فترة طويلة سواء داخل المغرب ، أو على مستوى عدد من الدول العربية والإسلامية ،وهو إنتاج يعود جانب منه أيضا إلى تعدد أنواع ومجالات كتب التراجم نفسها ، حيث تميزت بالأدبيات على سبيل المثال فقط بين كتب التراجم الإخبارية وبين كتب تراجم المناقب وداخلهما بين أعمال الترجمة الفردية والترجمة الجماعية ، والوفيات والأسر والطوائف [2].

من المصنفات التاريخية واحد وتسعون عنوانا ، كانت من ضمن الإنتاج الذي حصره "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " وتكشف مقاربة هذا الإنتاج عن جانب من خصوصيات التأليف في التراجم ، ودلالات حسب مختلف حقوله، كما شكلت محدودية الكتابات التاريخية ، التي يحصرها معجم ابن زيدان امتدادا لوضعية التأليف الخاص بالتأريخ للمغرب ، وهي وضعية تحتفظ بعلامات تهتم سواء بمسارات تمثل مفهوم التاريخ وحدوده ، أو خصوصيات الإنتاج في المجال ،وتتصل

1- ليفي بروفنصال ، مؤرخو الشرفاء ، المصدر السابق ، ص :53-54.
2- نفسه ، ص:71.

أولى هذه العلامات بالعلاقة المفارقة بين حجم الإنتاج وبين التمثل السائد لعلم التاريخ باعتباره ، كما يصفه عدد من أعلامه حقلا يحظى بأفضلية خاصة ، وهي أفضلية يستمدها حسب هؤلاء من طبيعة القرآن الكريم باعتباره نصا حافلا بأخبار الماضية والقرون الخالية ومن وضع التاريخ "كمعيار توزن به أعمالا الأمة في هذا الوجود ويعلم منه مكانها بين الأمم غيرها على الأرض "[1].

ثالثا : محتوى الكتاب

قسم عبد الرحمان بن زيدان كتابه "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين "إلى ثلاث أقسام منتظمة في جزأين ، كل قسم له جانبه الخاص في هذا المشروع ، حيث توزع القسم الأول من الكتاب على أربعة فصول ، وكان الجزء الأكبر والأكثر من الكتاب هو الذي احتوى على ذكر عدد كبير لمؤلفين على عهد دولة العلويين ومن أهم هؤلاء أحمد الرهوني وكتابه " عمدة الراويين في تاريخ تطاوين"[2] وأحمد بن خالد الناصري وكتابه " الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"[3]وأبو سالم سالم العياشي مع رحلتاه الكبرى والصغرى وفهرستان "تحفة الأخلاء في أسانيد الأجلاء " " ومسالك الهداية إلى معالم الرواية"[4].

وقد كان عمل المحقق فيه بدرجة كبيرة من حيث أن الفصل الأول خصص لترجمة المؤلف والتعريف به ، وأعماله وإنتاجه أما الجزء والقسم الثاني خصصه المحقق لدراسة المعطيات المتوفرة في المعجم في إطار مقاربة لمختلف مجالات الإنتاج التي يغطيها المعجم ، وذلك لما جاء في معجم ابن زيدان وذلك لتنوع المجالات التي خاض فيها المؤلف والتي بلغ عددها أربعة عشر مجالا ، وأما القسم الثالث الذي شغل الجزء الثاني فقد خصصه لتحقيق المعجم ومختلف فهارسه .

1- عبد الرحمان بن زيدان ، معجم طبقات المؤلفين ...، المصدر السابق ،ج:1، ص :154.
2- نفسه ،ج:2،ص32.
3- نفسه، ص: 52.
4-نفسه، ص :26.

ومن مجالات الإنتاج التي احتوى عليها معجم ابن زيدان ضمت التاريخ والفقه وأصوله ، وعلم التصوف وأعلامه وعلوم اللغة والبلاغة والعروض وكل ما يندرج ضمن الأدب من حكم وشعر وأمثال ، ومقامات وخطبة ، وحظيت السيرة النبوية التي بلغ عدد المصنفات فيها ثلاثة وثمانون عنوانا ، وفيما يخص علوم القرآن الكريم فقد كانت ضمن المعجم وأيضا علم الحساب والهندسة والفلك وغيرها[1].

وقد اعتمد ابن زيدان في تأليفه لمعجم طبقات المؤلفين إلى عدة شروط منها :

الشرط الأول : شرط معجمي ، أي ذكر الكاتب للمؤلفين على حسب ترتيب أسمائهم

الشرط الثاني : شرط طبقي ، أي أن الكاتب سيلزم بنظام الأجيال في عرضه للمؤلفين كل حسب طبقتهم الزمنية .

الشرط الثالث: شرط إبداعي ، وهي أن يكون المؤلف المذكور صاحب عمل أو أكثر .

الشرط الرابع : شرط زمني ، وهو أن ابن زيدان سيقوم بجرد للمؤلفين المعاصرين للدولة العلوية فقط

وقد وفق ابن زيدان في اختيار عنوان شارح لمنهجيته المعتمدة في تدوين مشروعه في كتابه هذا ، وبذلك فإنه لن يخرج عن هذه القواعد وسيكون غرضه هو حصر للكتابات العلوية المتضمنة لجميع المواضع العلمية [2].

وما يجعل من معجم ابن زيدان مصدرا معلوماتيا أساسيا ، من حيث أنه يقدم صورة عن جانب هام من الإنتاج الديني والأدبي والفكري والعلمي خلال مرحلة طويلة ، تمتد من القرن الخامس عشر الميلادي إلى القرن العشرين الميلادي ، وقد بلع عدد المؤلفين في معجم ابن زيدان حوالي ثلاث مائة وخمسة وثمانون مؤلف ، اختلفت مشاربهم ومؤلفاتهم [3].

1- نفسه ،ص : 85

2- مصطفى الشابي ،عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا سياسيا ، المرجع السابق ، ص: 145.

3- عبد الرحمان بن زيدان ، معجم طبقات المؤلفين ... ، المصدر السابق ، ص:229.

وقد اعتمد عبد الرحمان بن زيدان في مؤلفه على عدة مصادر ومن المصادر المذكورة في إحالات الكتاب لم يتجاوز إثنا عشرة مصدر واقتصر عدد الإحالات عليها ،وتتوزع هذه المصادر على كتب التراجم ومن بينها "نشر المثاني" للقادري و"البذور الضاوية" لسليمان بن محمد بن عبدالله الحوات وطبقات الحضيكي" و"شجرة النور" لمحمد بن مخلوف ومؤلفات تاريخية من بينها تاريخ الضعيف وفهرسة جمهرة التيجان [1]، كما شكل كتاب" سلوة الأنفاس محادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس" لمحمد جعفر الكتاني المصدر الأساسي لعبد الرحمان بن زيدان ، حيث إعتمد عليه في كتابة ثلاثين ترجمة ، ويليه كتاب "الإغتباط " لمحمد بن مصطفى بوجندار ، الذي شكل مصدرا لكتابة إحدى عشرة ترجمة ، كما إعتمد بن زيدان على مؤلفين له وهما " إتحاف أعلام الناس " و"الدرر الفاخرة " في كتابة تسع تراجم [2].

شكلت مكتبة عبد الرحمان ابن زيدان أيضا مصدرا أساسيا للمعلومات التي جاءت في المعجم وقد بلغ عدد المترجم لهم ، الذين أشار لهم ابن زيدان إلى وجود نسخ من أعمالهم بخزانته حوالي أربعون عالما ، وهي نسخ تتميز مجموعة منها بكونها بخط مؤلفيها ، كما أن بعضها هي نسخ نادرة وفريدة من نوعها ، واعتمد ابن زيدان في ضبط مصنفات عدد من المترجم لهم في معجمه على مجموعة من الخزانات ، أثبت أسماء تسعة منها وهي تتوزع على خزانة عمومية ، وخزانة القرويين وخزانة سلطانية ،بينما تضم البقية خزانات خاصة لعدد من العلماء والفقهاء ، ومنها خزانات عبد الحي الكتاني وأبي عبد الله محمد العربي وأحمد البدوي والفقيه أبي العباس بن أحمد الجابري [3].

كما شكلت المشاهدة جانبا مهما من مصادر ابن زيدان من خلال وقوفه ومشاهدته وكانت لا تتجاوز الخمس حالات ،ولأن مؤلف " معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " يعتبر من المصنفات التي تقوم أساسا على المعلومة التاريخية التي تقتضي دقة في النقل ، وتتجاوز وصف مشاهدات

1- عبد الرحمان بن زيدان ، معجم طبقات المؤلفين ... ، المصدر السابق ،ج1:، ص:74.
2- نفسه،ص: 81.
3- تفسه ،ص،ص : 82، 83 .

خاصة ، كما كانت الرواية الشفوية كمصدر لمعلوماته في حالات معينة ، وقد عكست الروايات حرص ابن زيدان على دقة معلوماته ، ومن ذلك إحالتاه " حسبما أخبرني بجميع ما ذكر وغيره أبو حامد المكي البطاوري قائلا أنه أطلعه المترجم على ذلك كله "، و"أخبرني من وثقت بخبره"[1].

رابعا : أهمية الكتاب

وتتجلى أهمية مؤلف "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " في كونه يندرج ضمن التآليف التي لها صلة بمجال المناقب والأنساب وذلك من خلال موضوعه المرتبط بالتدوين للأشراف ولعدد من رجال الزوايا ، وهذا ما جعل باحثا مثل بروفنصال يتحدث عن مصنفات هذا المجال ويعتبرها حسب قوله " الوثائق المكتوبة الوحيدة التي يمكن أن نعثر فيها على معلومات تهم الطرق الدينية المنبثة في النواحي المغربية"[2].

ويستند بروفنصال في ذلك إلى استحالة عدم وجود "وثائق روحية أو دموية"[3] تربط المترجم لهم بمؤسس إحدى هذه الطرق ، أو بأحد الدعاة لها ، وإلى كون الأسر الشريفة ، موضوع مصنفات المناقب والأنساب تكون غالبا هي المسيرة للطائفة الطرقية أو المشرفة عليها ، واحتفظ الإنتاج التاريخي بحضور الإنتاج التاريخي بين للتأليف في مجال تاريخ الدول والملوك ، حيث بلغ عدد العناوين ستة وعشرون عنوانا توزعت على جانبان ، الجانب الأول يعد امتداد لتقاليد ارتبطت بكتابة التاريخ الرسمي ، وهي تقاليد كان من مظاهرها ، كما يحددها عبد الوهاب بن منصور ، حرص جميع الأسر التي تعاقبت على ملك المغرب

1- نفسه ، ص:83.

2- ليفي بروفنصال ، مؤرخو الشرفاء، المصدر السابق ، ص:55.

3- نفسه ،ص :55.

على أن على أن يكون لها " مؤرخون يسجلون أخبارها ، ويخلدون أحداثها ، ويشيدون بمفاخرها ومآثرها ويحفظون ما قيل في سلاطينها وملوكها وأمرائها من فائق الشعر ورائق النثر"[1].

ويفسر ذلك عدد من المنصنفات الدالة التي تخص تاريخ الملوك ، والتي يحصرها "معجم طبقات المؤلفين" حيث بلغ عددها سبعة عشرة عنوانا متجاوزا بذلك التأليف في التاريخ العام للمغرب، والذي انحصر في تسع عناوين ، أما الجانب الثاني فيتجلى في إنتاج مؤرخين احتفظوا بمسافة تقتضيها حدود معينة من موضوعية التدوين التاريخي ، ويستحضر بروفنصال في هذا الإطار نموذج ابن عبد السلام الضعيف ، الذي "أطلق العنان لقلمه" كما يصف ذلك بروفنصال في كتابه الذي يتناول فيه الدولة العلوية من نشأتها إلى أواخر عهد المولى سليمان ، المعروف بتاريخ الضعيف "ليسجل فيه كل ما بدا له قبيحا " [2] ، وفي مقابل ذلك بلع عدد التآليف الخاصة بتاريخ المدن أو المحلي أربعة عناوين صدرت منها ثلاثة منها في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين ،بينما كتب الرابع في القرن التاسع عشر ، وبالرغم من محدودية العدد ، فإن ظهور التأليف في هذا المجال فتح هامشا آخر للكتابة التاريخية بالمغرب في أفق بحثها عن تجاوز لاهتماماتها التقليدية [3].

ويقدم "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين " لعبد الرحمان بن زيدان بذلك صورة تحتفظ بكثير من نقط التقاطع مع بنية التأليف خلال المرحلة التي يغطيها ، وهي بنية تطبعها علامات مختلفة ، لكنها تحتفظ في جميع الأحوال بإجابات عن كثير من الأسئلة التي يطرحها واقع الكتابة بالمغرب الراهن .

1- عبد الوهاب بن منصور ، مؤرخو الدول بين الأمانة التاريخية والالتزامات الوظيفية ، مج : المناهل ، العدد : 36، 1987، ص:16.

2- ليي بروفنصال ،مؤرخو الشرفاء ، المصدر السابق ،ص : 51.

3- عبد الرحمان بن زيدان ، معجم طبقات المؤلفين ... ، المصدر السابق ، ص : 160.

المبحث الثالث : كتاب المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف "وأهميته في التعريف بالسلطان إسماعيل

من المؤلفات التاريخية لعبد الرحمان بن زيدان كتاب "المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر المولى إسماعيل بن الشريف"، فرغ من تحرير هذا الكتاب عام 1927م ، وظل مخطوطا إلى أن قام بنشره عبد الهادي التازي عام 1993م ، وقد خصص عبد الرحمان بن زيدان مؤلفه لسيرة مؤسس الدولة العلوية السلطان إسماعيل وحرص فيه على إبراز جوانب من شخصيته ، وما ميز سياسته الداخلية والخارجية ، فتحدث عن مناقب السلطان وفضائله ، وسياسته في تدبير ملكه وتنظيم جيشه ، كما فصل في علاقاته مع الدول ، سواء مع العالم الإسلامي أو العالم المسيحي ، ورعايته للعلم والعلماء ، وابن زيدان إذ يؤرخ لهذا السلطان يؤرخ للدولة العلوية في فترة حكمه من سائر نواحيها [1] .

أولا : محتوى الكتاب

ينقسم كتاب المنزع اللطيف " إلى ثلاثة أقسام يعبر عنوان الكتاب عنها فعبارة "المنزع اللطيف" تعني ما تضمنه الكتاب من أدبيات ، والمفاخر هي الأعمال السياسية والعمرانية ، والمولى إسماعيل ابن الشريف وفلسفته في الحكم والسياسة ، فالأدبيات ترتبط بالقصائد الشعرية التي تهتم بشخص السلطان كالباب الثالث والعشرون المخصص لما قيل فيه من أمداح ترمز إلى ما وصل إليه المولى إسماعيل من مجد وما عرف به من شجاعة في توحيد البلاد والعباد ، فهو مفخرة العرب والإسلام كما تضمن أشعارا حول النسب الشريف ومكارم الأخلاق وحول بلاد سجلماسة وأهلها ،وكانت تصل القصيدة في ذلك حتى خمس صفحات ، ومن الأبيات التي كان يتمثل بها المولى إسماعيل كثيرا قوله " وجربت الأمور وجربتني كأني في الأمم الخوالي "كما كانت هناك قصائد مرتبطة بخصال المولى إسماعيل كالعدل والتواضع ، والخوف من الله، والتدين الملتزم ، وأخرى في الاستعطاف، كما فعل اليوسي حول موقف المولى إسماعيل من أهل الزاوية الدلالية [2].

1- خالد طحطح وبكور محمد ، مؤرخون مغاربة ، المرجع السابق ، ص:204.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف ، تح : عبد الهادي التازي ،الدار البيضاء ،مطبعة اديال، ط:1 ، 1993م ، ص: 161.

كما ارتبط الشعر أيضا بعظمة العمران وجمال القصور وعظمتها ومقارنتها بالآثار العجيبة [1]، ونقلت أشعارا مرتبطة ومنقوشة على الأضرحة والمساجد [2]، كما اقتبس أشعارا أخرى عن المتنبي تجسد الرأي والفكر والحوار ، على القوة والتصارع مثلا:

قد يغلب المرء بأرائه ألفا ولا يغلبهم بالسلاح

ويقول المتنبي

الرأي قبل شجاعة الشجعان هي الأول والمحل الثاني [3]

ثانيا : السلطان إسماعيل بن الشريف منجزاته ومميزاته

وقد حصر عبد الرحمان بن زيدان المفاخر السياسية والعمرانية لهذا السلطان في مؤلفه تقريبا خمسة مواضيع شملت ، دور المولى إسماعيل في إعادة توحيد البلاد المغربية ونشر الهدوء والأمن ببناء الحصون والقلاع وردع القبائل المتمردة ، والاهتمام بنشر العلم وتكريم أصحابه ، وفي ظهائر التوقير والاحترام ، وكان المولى إسماعيل يقول " العلم والخلافة أخوان "[4]، بالإضافة إلى تحرير الثغور المغربية المحتلة أو ما عنونه بفتوحاته وذكر "بأنه فتح على يد هذا الإمام العظيم المقدار عدة مدن بالقطر المغربي استلمها من يد النصارى الذين عمروا فيها طويلا ..."[5] و العلاقات الخارجية المرتبطة بقضايا معينة ،كافتداء الأسرى ، والسفارات المهادنة والتصالح ، ومراسلات مع أتراك الجزائر ودول أوربية ، ورسالته إلى صاحب تونس تبين حسه بوحدة المغرب العربي حيث يقول ابن زيدان فيها " مسألة جيرانك أهل الجزائر نوصيك أن

1- عبد الرحمان بن زيدان ، المنزع اللطيف ...، المصدر السابق ،ص : 386.

2- نفسه ، ص:315.

3- نفسه ، ص:155.

4- نفسه ،ص:123.

5- نفسه ، ص : 134.

تتوافق أنت وإياهم على المسألة وجميل المعاشرة فإنكم كلكم في قطر واحد وجيران في البلاد وايالتكم واحدة ورعيتكم واحدة ليس بينكم حاجز ولا سترة "[1].

وقد تطرق إلى الدولة الإسماعيلية وبنيتها من وزراء وقضاة وعمال وولاة ونظار ، وقضية الأولاد واستخلافهم، وكذا العمران والمتمثل في بناء مكناسة وتنظيمها واجتماعيا واقتصاديا وبناء المساجد والمدارس والأضرحة وترميمها وبناء القلاع والقصبات ، بناء القصور والدور والبساتين ، وهناك وصف دقيق لقصور مكناسة وهندستها وجمالها وفي هذا الباب يقتبس نص لزياني الذي يقول "حتى صير عاصمة ملكه حاضرة في بادية وبادية في حاضرة "[2] .

ويضيف ابن زيدان حول عظمة هذه المنشآت قائلا: " ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر جهدهم وما أكملوا نصفها مدة من نحو مئة سنة"[3] ، كما تضمن الكتاب مجموعة من ظهائر تحبيس الأملاك ، والتطرق إلى عمران بني المولى إسماعيل مدينة الرياض ، وهي محل سكن رجالات الدولة العلوية وذلك حتى يسهل الاتصال والتواصل وتنفيذ الأوامر سرعة ، وتيسير عملية التشاور وتبادل الأخبار والمعرفة .[4]

والمميزات الشخصية للمولى إسماعيل ، فقد حاول ابن زيدان تفنيد الأراء الأجنبية المغرضة التي حاولت تشويه شخصية السلطان إسماعيل ، فقد جاء بالعديد من النصوص الأجنبية والمغربية التي تدل وتوضح بموضوعية المزايا الشخصية للسلطان إسماعيل من حيث الاسم والنسب الشريف ومكارم الأخلاق واتصافه بالعدل والتدين والتواضع وعدم الاحتجاب عن الناس ، وحب الأولياء والصالحين والذكاء والدهاء السياسي مع الشجاعة والتسامح ويذكر ابن زيدان ما قصه "وندوس " قصة الأسير

1- عبد الرحمان بن زيدان ، المنزع اللطيف ...، المصدر السابق ، ص:209.

2- نفسه ، ص :366.

3- نفسه ، ص:385.

4- إدريس أبو إدريس ، قراءة في كتاب المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف ، مج:مكناسة ، جامعة مولاي اسماعيل ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،عدد:11، 1997،ص:172.

الذي سعى إلى مقتل وإغتيال السلطان فلم يكن له ذلك ولكن السلطان عفى عنه ، فمن ذلك الحدث اعتنق ذلك الأسير الإسلام [1].

ومما ذكره حول هيأته أن " سيفه المرصع بالجواهر كأنه بشير إلى تنفيذ الحق وإذهاب الباطل هو منتهى عزه وغاية أربه " [2]، ويختتم ابن زيدان مميزات شخصية السلطان المولى إسماعيل بما كان يروج في أوساط العامة والخاصة حول هاته الشخصية وما انفردت به من مزايا ، وقد أفرد لذلك نص يسرده الأفراني حول تخوف الناس مما يقع بعده ، حيث يذكر " ضخامة المملكة وعظم السلطنة ما أنسى دول المغرب السالفة فكان بذلك وجوده عصمة من الفتن والشر هو ديوان العباد "[3]، وكان القادري قد تطرق إلى ذلك قبل الأفراني وراوده هذا التخوف من إختفاء السلطان إسماعيل فقال " ففزع الناس لمرضه وتمنى أهل العقول أن يعيشوا بعده لكثرة ما تخوفوا من الفتن بغيبته عنهم وعدم القيام بأنفسهم سيما أهل المسكنة والضعف والدعاية ...ولما بلغ خبر وفاته لفاس هال ذلك أهل التمييز من الناس ومنهم من أصابه مرض من ذلك في بدنه ومنهم من فزع أشد الفزع خوفا من فضيحة الأهل ونهب الأموال وسفك الدماء "[4].

ثانيا : أهمية الكتاب:

لم يكن كل ما ذكره ابن زيدان عبارة عن مفاخر ، بل تعرض لعدة قضايا تاريخية منها ما تعلق بجمع " جيش البخاري" وما أثارته من نقاش وحوار وتضارب في الآراء وما أثارته من ضجة لدى الدول الأوربية حول وضع هؤلاء الأسرى بمدينة مكناس ، وتفنيد الأراء الأجنبية حول شخصية السلطان كقضية خطوبة المولى إسماعيل للأميرة ابنة لويس الرابع عشر [5]،والحسم في قضية الشرف حيث قام بغربلة

1- إدريس أبو إدريس ، قراءة في كتاب المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف ، المرجع السابق ، ص : 172.
2- عبد الرحمان بن زيدان ، المنزع اللطيف ...، المصدر السابق ، ص : 72.
3- إدريس أبو إدريس ، المرجع نفسه ، ص :172.
4- نفسه ، ص ،ص:172-173.
5- عبد الرحمان بن زيدان ، المنزع اللطيف ... ، المصدر السابق ، ص:269.

الأشراف من غيرهم ، أي من دعاة الشرف ، وقام السلطان إسماعيل بتعيين نقباء الأشراف بالحواضر الكبرى كمكناسة وفاس ومراكش وأكبرهم بجبل العلم [1].

وكانت قضية الشرف تعتبر قضية أساسية في تاريخ المغرب ، فكم من داعية ادعى الشرف وركب مطية النسب لتحقيق مآربه وطموحه ، بالإضافة إلى ذلك كانت فيه مميزات أخرى امتازت بها الكتابة التاريخية عند ابن زيدان منها اعتماده على عدة مصادر مهمة ونادرة أو مخطوطة غير متوفرة ، عربية كانت أو أوربية ، تضمنه لعدة وثائق ورسائل تهم السياسة الداخلية أو الخارجية لمغرب القرن17 وبداية القرن 18م ، وكذا استعراض موقف العلماء والفقهاء وأجوبتهم حول قضايا معينة ، أو أسئلة تطرح عليهم من طرف السلطان معتقلة بالدين أو الدنيا ، ونقده لبعض المؤرخين كأن يقول "هذا شأن الزياني في المجازفة وعدم التثبت "[2]، وأحيانا بقوم ابن زيدان بتكملة بعض الروايات من خلال ذكره " هذا غاب عن صاحب الجيش ولم يسأل عنه السلطان سليمان "[3]، وذلك مع الدقة في التحديد التاريخي كأن يقول " بويع يوم 16 ذي الحجة 1082 على الساعة الثانية بعد الزوال " [4].

كما أن كتاب المنزع اللطيف مع إتحاف أعلام الناس من الكتابات الأولى في التاريخ الاجتماعي والمحلي للمدن المغربية ، فيشكل بذلك مرحلة جديدة في الكتابة التاريخية المغربية ، كما أن غنى الكتاب من خلال ما تضمنه من عدة تراجم لأعلام والتي بلغ عددها حوالي ألف ومائة وثمانية عشر ، والأماكن بلغ عددها حوالي ثلاث مائة من المدن والبقاع التي جاءت في الكتاب ، وبلغ عدد القبائل والعشائر التي احتوى عليها المؤلف من دون ذكر للأجناس حوالي أربع مائة وثلاثون ، والمؤلفات التي صرخ بها

1- نفسه ، ص :244.
2- نفسه ، ص:286.
3- نفسه ، ص: 287.
4- نفسه ، ص: 46.

المؤلف والتي كانت بمثابة المادة التي أثرت مؤلف المنزع اللطيف بلغ تعدادها ما يقرب عن مائة وثمانين مؤلف [1].

وكانت المصادر التي اعتمد عليها بن زيدان وتطرق إليها في عدة مواضع في مؤلفه "المنزع اللطيف" مثل "التقاط الدور " للقادري وقد ذكر المؤلف في عشرين موضعا وذكر المؤلف صراحة في ثلاث مرات ، و"البستان الظريف" ذكر تسع مرات واسم الزياني ذكر 25مرة ، ومؤلف الجيش العرمرم لمحمد بن أحمد الكنسوسي الذي ذكر إحدى عشرة مرة وذكر اسم المؤلف ثلاث مرات ، وكتاب "ذر المنتخب" للابن حمدون الفاسي الذي ذكر صراحة ثلاثة وعشرون مرة ، "وروضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف" لمحمد الصغير اليفرني ثلاث وعشرون مرة وذكر اسم اليفرني أربعة عشرة مرة [2].

وكان عبد الرحمان بن زيدان يفضل رواية القادري في النشر والتقاط الذرر ، وللذر المنتخب لابن حمدون الفاسي ، وروضة التعريف لليفرني ، في حين يهمل رواية الزياني في كثير من القضايا ، ويفضل روايته فيما يخص العمران بمدينة مكناس ، وأعتمد ابن زيدان كذلك على مصادر أجنبية مثل رحلة مكناس لجون وندوس حيث أخذ عنه ما يقرب من سبع صفحات من كتابه الذي هو عبارة عن وصف رحلة سفارته إلى مكناس ، وما شاهده فيها ، ووصفه للسلطان المولى إسماعيل بالتفصيل ، كما أخذ عن الأسير جيرمان مويث والأب بوسنو [3]

كما أن الكتابة التاريخية عند ابن زيدان في مؤلفه المنزع اللطيف لا تخلو من بعض النقاط ، كالاستطراد مثلا في الباب التاسع عشر المعنون ثغرات الدولة ، يتطرق فيها ابن زيدان لقضية جمع جيش العبيد ومحنة الفقيه جسوس ،وعدم التفصيل في بعض المسائل المهمة مثلا في الوظائف ، كتب سطرين عن المحتسبين في العهد الاسماعيلي ، كما لم يفسر بعض الإشكاليات التاريخية ، كالسفارات المغربية

1- إدريس أبو إدريس ، قراءة في كتاب المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف ، المرجع السابق ، ص:174.
2- نفسه ،ص:174.
3- إدريس أبو إدريس ، المرجع السابق ، ص: 175.

للخارج ، وقضية الأسرى المسحيين التي لم يبث فيها ، وتعرض فقط لحبس قارة ، ولم يتعرض لمحل إقامة هؤلاء الأسرى وسط مدينة مكناس وحيهم الذي كان يطلق عليه "القنوط ، كما أخذ بعض الروايات من مصادر أجنبية دون نقد أو تمحيص ، كما فعل مع ما أخذه عن وندوس (يذكر أن السلطان مولوع بالهدم أكثر من البناء ، وأن الهدف من البناء هو إشغال شعبه) [1].

كما أن ابن زيدان يكرر أشياء جاءت في إتحاف أعلام الناس وذلك بذكره وترديده " وقد بسطنا الكلام في ذلك في إتحاف أعلام الناس "[2] لذا يظهر وكأن المنزع اللطيف ملخص للإتحاف إذا أزيلت منه التراجم الأعيان والأمراء والعلماء ، فيصبح من الجائز تسمية المنزع اللطيف بالإتحاف الصغير ، ومهما يكن الفرق بينهما فإن الكتابة التاريخية عند عبد الرحمان بن زيدان تشكل مراحل جديدة في فترة كان المتوفر فيها الكتابة التقليدية المتميزة بالتركيز على الأحداث السياسية العامة ، أو الكتابة الاستعمارية ذات الأبعاد الإيديولوجية المناهضة للوحدة المغربية والخادمة لسلطة الحماية ، وضرب كل ما له شأن بالتاريخ المغربي ومقومات أمته ودولته ،فكان ابن زيدان ومعه اثنين أو ثلاثة من المؤرخين الذين ابتعدوا عن التقليد وكتابة التاريخ المغربي من منظور جديد ، وقد وجهوا سهمهم إلى ضرب الإدعاءات المفروضة في الكتابة الاستعمارية ، فكان ابن زيدان بذلك مؤرخا وطنيا جمع بين التقليد والتجديد في كتابة تاريخ الدولة العلوية المغربية فتكونت بذلك مرحلة انتقالية في جسر الذاكرة المغربية [3].

ويبقى مؤلف " المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل " من المؤلفات التي من خلالها أراد عبد الرحمان بن زيدان إيصال مفاخر وصفات المولى إسماعيل وما كان يتميز به ، وذلك لما خصه به من تمجيد وتقديس ونعته بصفات جليلة تدل على حب هذا الأخير وإعجابه بهذا السلطان ، وبحكم انتمائه لهذه الدولة التي ينتمي إليها ابن زيدان ، ما جعل طابع الذاتية يطغى على جل هذا الكتاب ولمسنها في ما سبق ذكره في دراسته ، ولكن رغم ذلك يبقى هذا الكتاب فيه من الفوائد ما يمكن عن يتعرف عليها

1- عبد الرحمان بن زيدان ، المنزع اللطيف ... ، المصدر السابق ،ص،ص : 378،379.

2- نفسه ، ص:385.

3- ادريس ابو إدريس ، قراءة في كتاب المنزع اللطيف ...، المرجع السابق ،ص: 175.

الباحثون في تاريخ المغرب على ما كان عليه السلطان المترجم له وهو السلطان إسماعيل الذي كان له ور كبير في مدينة مكناس وحاضرتها .

المبحث الرابع : كتاب "العلائق السياسية للدولة العلوية" وأهميته في كتابة التاريخ السياسي والدبلوماسي للدولة العلوية

اهتم ابن زيدان بعلاقات السلاطين مع الأجانب ، وتطرق لها في ترجمة كل سلطان على حدة ثم أفرد لها مؤلفا خاصا سماه " العلائق السياسية بين الدولة العلوية والدول الأجنبية "

أولا : عنوان الكتاب

عنوان الكتاب كما جاء في أولى صفحات مخطوطته " العلائق السياسية للدولة العلوية "[1]، وتأليف هذا الكتاب جاء كعدد آخر من مشاريع ابن زيدان التاريخية ، وذلك بعد توسعه في تحليل موضوع سبق أن تطرق إليه في محاضرة أو ندوة ، وهكذا بدأ في شكل محاضرة ذكر في بداية مؤلفه " ألقيها على مسامعكم طبق ما اقترح علي ...فاسمعوا ما يتلى عليكم في هذا المجال " ويورد في نص التأليف جملة يذكر فيها "وكذلك ترون أيها السادة ، كيف اتسعت دائرة العلائق السياسية في هذا العصر المحمدي "[2].

ووسع عبد الرحمان بن زيدان في عمله وأصدر ملخصا له، نشر ملحقا في" مجلة المغرب " في عددها 16 الصادر سنة 1934م في خمسة وعشرين صفحة الصادرة عن المطبعة الوطنية بالرباط ، وقد واصل في التوسع في عمله حتى بلغ شكله الشكل الذي تتوفر عليه النسخة الحالية بعد التحقيق في 450صفحة ، كما أن النسخة المخطوطة بلغ عدد صفحاتها 138 صفحة وهي موجودة بالخزانة الحسينية تحت رقم 11774[3]، ويظهر من شكل الكتاب أن ابن زيدان لم يتمكن من تخريجه كاملا

1- عبد الرحمان بن زيدان،العلائق السياسية للدولة العلوية ،تح: عبد اللطيف الشاذلي،الرباط، المطبعة الملكية ،1999م، ص: 22.
2- نفسه ، ص:22.
3- عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ، ص:149.

لذلك يذكر ابن زيدان " وفي منصرم عام أربعة وأربعين زار السلطان المحترم مولاي يوسف الديار الفرنسية ردا لزيارة رئيس جمهوريتها المذكور وتجول في أنحائها مدة تقرب من الشهرين"[1].

وكان هذا التوقف المفاجئ عند أحداث 1344هـ كما يذكر ذلك ابن زيدان الموافق لسنة 1928م يعني أنه كان يعتزم على الاستمرار في عمله ، كما أن هذا التاريخ يوافق تاريخ فراغه من جمع الإتحاف وتخريجه قبل تسليم مخطوطه للمطبعة ، وذلك ما يدل أن ابن زيدان من قبل انشغاله طيلة السنين الموالية بإعداد وتخريج عدد كبير آخر من مؤلفاته ، فلعل انشغالاته العلمية هاته هي التي أخرت من إنهاء تأليفه لكتاب تاريخ العلائق [2].

ثانيا : محتوى الكتاب

اعتمد عبد الرحمان بن زيدان طريقة واضحة المعالم في التأليف ، وأعلن عنها في مقدمة كتابه بكل وضوح " أثبتناه هنا مرتبا على ملوك الدولة العلوية ، ملما ببعض الحوادث التي كانت على عهدهم خارج الإيالة المغربية ، ذكرا ما لهم من المعاهدات والمرسلات الدبلوماسية وغيرها"[3]، فكان المؤلف قائم على مقدمة عامة في فوائد وجود العلاقات بين الدول ، ثم يعمد إلى تقسيم عمله الأقسام التالية :

أولا : يخصص لكل سلطان من سلاطين الدولة العلوية فصلا ويعنونه باسم السلطان صاحب الترجمة ، وهكذا جاء الكتاب مقسما إلى أربعة عشرة فصلا جاءت على النحو التالي :

1-المولى بن الشريف 1050-1075هـ/1640-1664م

2-المولى الرشيد :1075-1082هـ/ 1664-1672م

3-المولى إسماعيل :1082-1139هـ/1672-1727م

1- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية...، المصدر السابق ، ص :23.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية ...، المصدر السابق ، ص: 23.

3- نفسه ، ص : 23.

4-المولى أحمد الذهبي :1139-1141هـ/1727-1775م

5- المولى عبد الله بن إسماعيل :1141-1171هـ/1729-1757م

6- سيدي محمد بن عبد الله :1171-1204هـ/ 1757-1790م

7- المولى اليزيد بن محمد بن عبد الله : 1204-1206هـ/1790-1792م

8- المولى سليمان بن محمد بن عبدالله :1206-1238هـ/1792-1822م

9- المولى عبد الرحمان بن هشام : 1238-1276هـ / 1822-1859م

10- سيدي محمد بن عبد الرحمان بن هشام :1276-1290هـ/1859-1873م

11- المولى الحسن :1290-1311هـ/1873-1894م

12- المولى عبد العزيز : 1311-1326هـ/ 1894-1908م

13- المولى عبد الحفيظ : 1326-1331هـ/1908-1912م

14- المولى يوسف :1330هـ-1346/1912-1927م[1]

ثانيا : كما أن عبد الرحمان بن زيدان ركز في فصل من فصول هذا الكتاب على وجوه التعامل السياسي بين المغرب في فترة السلطان المدروس والمترجم له ويقدم بشكل مركز أهم معالم ذلك التعامل .

ثالثا : كان ابن زيدان يستشهد لدعم ما أورده مركزا على المراسلات السلطانية واستحضار نصوصها وظهائرها المخزنية وكان يزيد على ذلك بوثائق نادرة ومتنوعة .

رابعا : كان ابن زيدان يختم كل فصل من فصول كتابه بالإشارة إلى التطورات الكبرى التي عرفها العالم خصوصا ما تعلق بالتطورات العلمية والاقتصادية والسياسية وغيرها من الميادين [2].

ومن يتأمل ما كتبه ابن زيدان في ذلك ، يدرك أنه يعتقد أن هذه العلاقات الخارجية هي المعيار الأبرز لعظمة كانت للمغرب وذهبت أدراج الرياح ، فابن زيدان كان يقارن عهد مولاي إسماعيل بما آل

1- نفسه ، ص:24.

2- نفسه :ص: 24.

إليه الأمر بعد دخول الاستعمار ، وإن كان يستعمل هذه الكلمة ، لا يتبين له الخلل التاريخي إلا في شكل "فساد" يصيب الأمم ، كما تصيب الأمراض الأجسام ، ويطرح ابن زيدان سؤالا حول ما وقع في أوربا من تطور خلال قرون أدى إلى الثورة الصناعية ، كل ذلك هو أنه أراد أن يقول للأجيال بعده ، كنا من أنداد هذه الدول[1] ..." تشمل هذه العلائق في نظر المؤلف المجاملات والتظاهر بالوداد والتحايد والمهادنات والمعاهدات والمبادلات في التجارة ...وغير خاف على من له قلب يعقل به لتحسين العلائق بين الدول والأمم من الفوائد الجمة والمنافع التي لا تكاد تدخل تحت حصر ، ناهيك ما في ذلك من نمو التجارة وجلب الثروة للبلاد ، والنوم في مهاد الأمن والاطمئنان ، ولو لم يكن من فوائد جمع ذلك في الأسطر الوجيزة إلا الإرشاد للأبناء لما كان عليه الآباء من رسوخ القدم وعلو الكعب في السياسة الداخلية ومزاحمة الأمم الراقية بالمناكب في ميادين الاقتصاد والسعي للأمة وراء جلب الراحة والمقدرة والشوكة ونفوذ الكلمة التي قضت على الدول الأجنبية العظيمة بالسعي وراء مسالمتهم وعقد الهدنة معهم والاعتراف لهم بالكفاءة إن لم نقل التفوق وشفوف المكانة ، لكي لا يكون مبلغ علم أولئك الخلف عجز السلف عن مزاحمة الأوروبيين في كل المهمات التي تنابذ الدين وتتكفل للشعب والبلاد بما فيه الصلاح ونجاح المسعى"[2].

كما يبحث لها أصل فيضيف ابن زيدان " فربط العلائق بين الدول والأمم له في الكتاب والسنة أصل أصيل ، يشهد له ما في التنزيل : "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم والله يحب المقسطين "، "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين"[3]، كما يتطرق ابن زيدان لموضوع خاص طريف في عهد المولى إسماعيل بقوله :

"من ذيول سفارة ابن عائشة هذا ما أشيع من المولى إسماعيل كلفه أن يخطب إليه الأميرة دوكانتي من أبيها لويس الرابع عشر وذلك لما أخبره به السفير عبد الله من جمالها ووصف له من محاسنها ، وأن

1- سعيد بنسعيد العلوي وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ،ص: 150.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية ...، المصدر السابق ، ص : 1.

3- نفسه ، ص: 2.

هذه الخطبة لم تلق نجاحا ، وهذه المقالة التي عاشت عن كتبة الفرنسيين ، وإن كانت تدل على رغبة المولى إسماعيل في جعل رابطة فرنسا أوثق مما كانت عليه عروة وأشد تمكنا مما يستغرب وقوعه ويعد ثبوته محالا لوجوه : منها أنها لم تقع بكتاب رسمي وترسل بما ينبغي أن ترسل به من الإجلال والتكريم اللائقين بمقام الملكين العظيمين ، إنما أصل ذلك مبني على ورقة كتبها رجل كان بسلا نائبا عن بعض التجار ، ومنها استبعاد أن يحصل من السفير ذكر لها عند السلطان أو وصف لأنه أرسله لأمر أعظم من تلمح جمال الفتيات والتغزل بذكره ، منها عدم التوافق في الفكر والمعتقد واللغة والتربية المؤدي لسوء حال العلائق بين الملكين والدولتين ، إلى غير ذلك من الوجوه التي أشرنا إليها في المنزع اللطيف "[1] .

كما يذكر ابن زيدان العلائق السياسية في عهد السلطان محمد بن عبد الله بقوله" ... اتسعت دائرة العلائق السياسية في العصر المحمدي ... وارتبط المغرب فيه بالدول العظمى في ذلك العهد بمعاهدات واتفاقات كان من نتائجها تسهيل سبل التجارة للواردين من أبناء تلك الدول وتمكين المغرب من جلب ما يحتاج إليه من المواد الحربية وغيوها ، على أن هذه النتيجة نفسها كانت السبب في تداخل الدول في شؤون المغرب بعد ذلك لما نشأ عن تلك المعاهدات من الامتيازات الأجنبية التي قاسى الملوك المتأخرين شدائدها حتى كادت تشل أيديهم عن العمل في بلادهم،وتصبح مشاكلها المتعددة هي شغلهم الوحيد الذي لا يمكنهم معه الانصراف إلى إنهاض البلاد وإلباسها حلة التجديد "[2].

كما تطرق عبد الرحمان بن زيدان إلى عواقب احتلال الجزائر من طرف الاستعمار الفرنسي على المغرب من خلال ذكره "...ولما احتلت فرنسا الجزائر وظهر الأمير عبد القادر الشهير كان السلطان مولاي عبد الرحمان يعينه ويمده ويميره على مقاومتها إلى أن ضاقت عليه المسالك ودخل الحدود المغربية ووقع الهرج والمرج وهمت فرنسا باقتفاء أثره وإبطال ما كان بينها وبين ملوك المغرب من المعاهدات ،

1- نفسه ، ص: 4.

2- نفسه ،ص :12.

اضطر السلطان إلى توجيه جيش برئاسة ابن الجناوي الرباطي إلى الحدود استعدادا للطوارئ ، فلما تقابل الجمعان اشتبكا وانهزم ابن ابن الجناوي وتبعه الفرنسيون ، ولما وصل خبر الهزيمة إلى السلطان بادر بإرسال ولده سيدي محمد الذي صار بعد سلطانا فكانت بينه وبين الجنرال بيجو واقعة إيسلي الشهيرة ، وبعد ذلك عقد السلطان مع فرنسا بواسطة نائبه أبي سلهام أزطوط اتفاقا مؤرخا ب28 شعبان 1260 فيه ثمانية شروط ، ثم تلاه اتفاق على إبقاء الحدود على ما كانت عليه أمضاه القائد حميدة الشجعي والجنرال دولار "[1].

كما تطرق عبد الرحمان بن زيدان إلى جهود السلطان مولاي الحسن الدبلوماسية من خلال ما ذكره عنه في العلائق "غير خاف ما كانت عليه السياسة الخارجية بهذه المملكة بعد حرب تطاوين وما نشأ عنها من تداخل سفراء الدول في القضايا والوقوف للمخزن في أوعر المسالك وأضيق المئازق وتكثير الحمايات وتطاول المحميين على الحكام المخزنيين بأدنى علقة توصلهم لذلك وتفاحش الامر إلى أن وصلت الحالة إلى درجة كاد أن يتعذر معها تنفيذ أوامر المخزن في الرعية لعدم إمكان تعميمها بسبب الامتيازات المعبر عنها بالمصالح الأجنبية المخولة لهم بمقتضى الفصل التاسع والعاشر من معاهدة عم المترجم مولانا العباس المنعقدة مع الاسبان عقب الحرب المذكورة أيام والد المترجم السلطان سيدي محمد قدس الله أرواحهما "[2].

وأورد ابن زيدان نصوصا في كتابه العلائق توضح كيفية انعقاد الحماية على المغرب والتداعيات التي كانت السبب المباشر في فرض هاته الحماية " وأوفدت إليه السلطان عبد الحفيظ فرنسا سفيرها م.رينيو سنة 1327 فوجه إليها وزير ماليته إذ ذاك الحاج محمد المقري متأبطا لظهير منه أصدره لرئيس الدولة م.فليار ، كان القصد من هذه السفارة النظر في مسألة الديون واحتلال وجدة وثغر الدار البيضاء وتعويضات خسائر هذه الأخيرة ، ثم كان ما كان من حصار البرابر السلطان بفاس واضطراره إلى

1- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس ...، المصدر السابق،ج:2 ،ص :279.

2- سعيد بنسعيد العلوي وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، المرجع السابق ،ص:154.

مساعدة الجيش الفرنسي النازل بالشاوية وثغر الدار الدار البيضاء ، فقدم لنجدته الجنرال موانى ، وبسبب ذلك دخلت فرنسا فاسا ثم نشرت حمايتها على المغرب ثم تنازل السلطان المذكور"[1].

ثالثا :مصادر ابن زيدان في التأليف

اعتمد عبد الرحمان بن زيدان وهو يحرر كتابه العلائق السياسية على مؤلفاته في حد ذاتها التي انتهى منها خصوصا ما تعلق منها بتاريخ المغرب ، فبينما كان يحرر العلائق ،كان قد انتهى من تأليف مؤلفه إتحاف أعلام الناس ، وفي نفس الوقت تم الانتهاء من كتاب المنزع اللطيف والدرر الفاخرة والعز والصولة ، وقد كان لكل هاته الكتب جميعها تداخل في المواضيع التي طرقها ابن زيدان في جل بحوثه التاريخية ، لذلك كان قد عمد إلى الإحالة على باقي مؤلفاته وهو يؤلف كتاب العلائق وذلك تفاديا للتكرار والإطالة [2].

ومن المصادر التي اعتمد عليها وأحال عليها خصوصا من مؤلفاته هي :

- إتحاف أعلام الناس ويسميه التاريخ الكبير أو تاريخنا الكبير أو الإتحاف ، وغالبا ما يحيل على الجزء والصفحة المقصودة
- العز والصولة ويسميه نظم دولتنا العلوية العلية أو نظام دولتنا الشريفة أو نظام الدولة
- المنزع اللطيف ، ويذكره بما هو معنون به

كما اعتمد ابن زيدان على على مادة وثائقية مهمة ، واستغلها في مؤلفه العلائق السياسية التي نذكر منها :

- وثائق المكتبة الزيدانية ، وقد ذكرها حوالي 30 مرة ، حيث يشير مرارا إلى أن أصل الوثيقة " محتفظ به بالمكتبة الزيدانية أو صح من أصله المحتفظ به بالمكتبة الزيدانية أو رسم أصله

1- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية ...، المصدر السابق ، ص:28.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية ...، المصدر السابق ، ص:25.

الفوتوغرافي محتفظ به ضمن كناش فتوغرافيات الظهائر بالمكتبة الزيدانية أو دفتر المسودات ، صحيفة 44 من المكتبة الزيدانية ، ومن ذلك يمكن القول في هذا الجانب أن عبد الرحمان بن زيدان اتخذ تنظيما واضحا في ترتيب وثائق خزانته ، حيث تشمل ملفات للمصورات وللمسودات وللأصول ، مرتبة مرقمة [1].

وكان لمستودع الأوراق بالبلاط الملكي من رباط الفتح ، ويسميه ابن زيدان مستودع الأوراق الدولية بالبلاط السلطاني بالرباط ، ووثائق وزارة الخارجية الفرنسية التي كانت في اهتمامات ابن زيدان واعتمد عليها في تحرير العلائق ، كما كانت لمؤلفات أخرى غير التي تخص شخص ابن زيدان رجع إليها وأحال عليها ومن بين هاته المؤلفات الرحلة المكية لأحمد سكيرج والتي انتقى منها ابن زيدان ما وصف به سكيرج ملك الحجاز في حوالي ثلاث صفحات ، والضعيف الرباطي ومؤلفه تاريخ الدولة السعيدة استعمله ابن زيدان بالمعنى دون اللفظ في عدة جوانب من كتاب العلائق ، وأحال على كتاب تعطير النواحي في ترجمة الشيخ إبراهيم الرياحي لعمر الرياحي دون أن يقبس منه ، كما استشهد بحوالي نصف صفحة من كتاب إحراز المعلى والرقيب ، في زيارة بيت الله الحرام وقبر الحبيب لابن عثمان محمد المكناسي ، وإلى جانب هاته المؤلفات أشار ابن زيدان إلى عدة مؤلفات دون أن يقبس منها مثل البدر السافر لهداية المسافر لابن عثمان المكناسي ، والإكسير في فك الأسير لنفس المؤلف ، وكتاب نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد لأحمد بن المهدي الغزال ، والغساني أحمد بن عبد الوهاب في كتابه رحلة الوزير في إفتكاك الأسير والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري أحمد بن خالد [2].

رابعا : أهمية الكتاب

1- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية للدولة العلوية ...، المصدر السابق ، ص،ص:25-26.

2- نفسه ، ص ،ص : 26-27.

تكمن القيمة التاريخية كتاب العلائق في كونه يحتوي على عدة جوانب مهمة ومظاهر أساسية لأن ابن زيدان من حيث كونه أول مؤرخ مغربي اهتم بمبحث العلائق الدولية وحتى الخمسينيات ، فأهمية كتاب العلائق تكمن قبل كل شيء في العلم الذي يبحث فيه ، وهو علم تعامل الدول فيما بينها وتأثير ذلك التعامل على مسيرة كل مجتمع من المجتمعات المعنية ، وقد كان لشغف ابن زيدان بالعلاقات الدولية يظهر جليا حتى في غير كتابه العلائق هذا ، بل كان يتطرق لها في عدة فصول من كتابه الإتحاف تتضمن مباحث خاصة بالعلائق الدولية ، فكان ابن زيدان بعد ترجمة لكل سلطان من سلاطين الدولة العلوية[1] ، يخصص فصلا للحديث عن العلاقات الدولية في عهده ، وهذا ما تنبه له الأستاذ عبد الهادي التازي في تقديمه لمؤلف المنزع اللطيف من الشغف الفعلي لعبد الرحمان بن زيدان بالعلاقات الدولية وخوض غمار التأليف والكتابة عنها[2] .

ومن بين الاعتبارات التي تعجل كتاب العلائق من بين المؤلفات المهمة ، وذلك لأن النقيب عبد الرحمان بن زيدان أثرى مؤلفه هذا بمجموعة من الوثائق والظهائر والمرسلات الرسمية ، وبذلك فان ابن زيدان قد فتح للباحث في مجال تاريخ العلاقات السياسية والدبلوماسية بابا ويرفع من غياهب الماضي للمتطلعين إليه حجابا ، وحسب ما أورده في كتاب العلائق " تاركا التعليق والاستنتاج والنقد لغيري وبالمثال يتضح المقال "[3] .

كما انفرد عبد الرحمان بن زيدان في وقته بالتعريق والتطرق للأحداث الواقعة والجارية خارجة المغرب الأقصى في الفترة المعاصرة ، ومن خلالها فتح ابن زيدان بابا جديدا في الكتابة التاريخية بالمغرب الأقصى ، حينما ضمن كتابا مغربيا أخبارا من كل أرجاء العالم ، متتبعا تواريخ سلاطين الدولة العلوية وأقاليمها ، كما تتبع أحوال كثير من الدول الأوربية وما عرفته من تطورات علمية وسياسية ، مركزا على الأحداث الجارية في وقته ونقلها في صورتها الحدثية والتاريخية مراعيا النقل الصحيح للمعلومات وتوثيقها

1- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية... ، المصدر السابق ، ص: 28.

2- عبد الرحمان بن زيدان ، المنزع اللطيف... ، المصدر السابق ، ص:11.

3- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية... ، المصدر السابق ،ص :36.

،وقد أراد ابن زيدان من كتابه العلائق إثارة انتباه القارئ إلى الحوادث الكبرى والتطورات لتاريخ المغرب الحديث والمعاصر ، مشيرا أحيانا إلى ما كانت عليه البلاد وما آلت إليه ، متجاوزا بذلك الإطار الذي حدده في بداية كتابه ليصبح مؤلفه خطابا سياسيا واضح المعالم ، فمن خلال استعراض مختلف مراحل العلائق مع المغرب ، ويظهر مدى التدهور والتدني الذي يتجلى من المقارنة بين مغرب عصر السلطان إسماعيل بن الشريف في كيفية التعامل والتخاطب مع ملوك الدول الأوربية وبين ما شهده المغرب الأقصى أوائل القرن العشرين ، وبذلك تتأكد أهمية ما كان يود عبد الرحمان بن زيدان إيصاله إلى أهل عصره ، ففائدة التأليف تتجاوز حد الإخبار لتصل إلى التربية وغيرها[1].

وهو يقول في هذا الصدد " إن التدوين هذه العلائق خدمة للتاريخ العام ، وإحياء لذكرياته المفيدة على الدوام ، وتنبيها للجيل الحاضر والأجيال القادمة ، على ما كان لنا من مجد وضخامة وفخامة في الأزمان المتقادمة ، وحضا للأبناء على الأخذ بما أخذ به الآباء في شمم وإباء ، والاقتداء بهم في رسوخ القدم ، وانتشال الشعب من وهدة العدم ، والخوض على بصيرة نافذة صافية في السياسة الداخلية والخارجية ، ومزاحمة الأمم بالمناكب في كل نافعة ، والسعي في جلب الراحة للأمة وحفظ منطقة نفوذها الواسعة وحراسة سياج مملكتها الشاسعة وسلوك سبل الحكمة والحنكة في ذلك ، تخطب ودهم كبار الدول والممالك ، كما فعلت مع أبائهم ، الذين يشهد بالتفوق صادق أنبائهم ، إذ ثبت أن الدول الأجنبية كانت تخطب ودهم ، وتسعى في مسالمتهم وعقد الهدنة معهم ، والاعتراف لهم بالعظمة التامة والتمدن الراقي ، وشفوف المكانة في أرفع المراقي ، حتى لا يكون مبلغ علم الخلف الحكم بالعجز على السلف ، أو الظن بأنهم لم يتفوقوا على الغير في سائر المهمات أو لم يقدروا على حفظ مكانتهم عند إلمام الملمات "[2]

1- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية ، المصدر نفسه ، ص: 29.

2- نفسه ، ص،ص :30،29

وبعد أن يستعرض في كثير من التفصيل مجهودات السلطان مولاي الحسن الأول في باب الإصلاحات ، يثير الانتباه إلى أن وضع المغرب ليس على ما يرام ، وهذا يدل على أن ابن زيدان كان على دراية ووعي بوضعية البلاد المغربية ودعوته بكيفية ضمنية إلى تجاوزها ، وهو يقول متحدثا عن السلطان الحسن الأول "فانظروا إلى همة هذا الملك الجليل ، فلو جرى العمل على ما اقتضته همته في هذا الشأن ، ولحقت في جو الترقي إلى حيث لا يقعقع لها شأن غير هذا الشأن ، ولفاقت في تقدمها ورقيها اليوم دولة اليابان ، لما فطر عليه المغربي من الذكاء النادر والنبوغ الطبيعي والشجاعة المفرطة ، ولكن لله في خلقه شؤون "[1].

وهكذا يرجع ابن زيدان هذه الحالة إلى القدرة الإلهية فلله في خلقه شؤون لكنه بعد ذلك يحمل مايسميه " البطانة" جزءا من المسؤولية ، فتفوق اليابانيين وتمكنهم من النهضة عكس المغرب ، وذلك لأن اليابان اتجه إلى نفس اتجاه سياسة الحسن الأول الإصلاحية وأعانته بطانته الحسنة فكانت النتيجة المنتظرة ، فعبد الرحمان بن زيدان يقصد أن بطانة السلطان الحسن الأول لم تكن تتوفر على نفس النية الحسنة والقصد الطيب [2].

وقد طرق ابن زيدان باب الحاشية أو البطانة المحيطة بالسلطان والتي تسهر على سير أمور البلد بمعية السلطان عدة مرات ، وهذا في أحداث سنة 1904 حينما أرسلت فرنسا سفيرها إلى السلطان عبد العزيز للتباحث في الأنظمة المقترح إنشاؤها بالمغرب ، بالأخص فيما يرجع للعسكرية والحدود الجزائرية ويصف ابن زيدان كيف أن السلطان شكل مجلسا استشاريا مكونا من ممثلين اثنين أو ثلاثة من كل إقليم [3].

1- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية ...، المصدر السابق، ص:30.

2- نفسه ، ص : 31.

3- نفسه، ص:31.

ويذكر ابن زيدان أنه اجتمع بفاس منهم كل ذي جاه ووجاهة ، وصارت الدولة تنفق عليهم من خزينتها مدة ثمانية عشر يوما ، كثرت فيها الاجتماعات والمفاوضات ، ولكن يتحصر ابن زيدان ويتأسف أنه النتيجة في النهاية كانت خسرا ، ويضيف في مجمل قوله "وقفت على عدة كنانيش حاملة لمطالب السفير الفرنسي وأجوبة الوفد الذي إذا رأيت أصحابه تعجبك أجسامهم ، وتلفت أنظارك عمائمهم وبرانسهم وإن يكتبوا أو يقولوا ترى أحلام العصافير في أكبر مجاليها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأدهى فقر يصيب الدول ، وأمر خراب يحل بها الفقر من الرجال والعقول ،ولله سبحانه في خلقه شؤون ، ولا يسأل عما يفعل ، وماذا عسى أن يفعل السلطان وحده إذا اقفرت أمته من أولي الألباب واستولى على قلوب الرؤساء حب المال وتقديم المصالح الشخصية ولو بالتضحية بالعالم أجمع [1] .

يمكن القول أن ابن زيدان لم يكن ليخرج وينسلخ عن مكانة المواطن المثقف ، لذلك جل كتاباته التي تدرس من جانب تاريخي وجهة نظر تاريخية محضة ، لابد لها أن تأخذ مناحي دراسية من خلال وجهات نظر أخرى ، والتي تمكن من التعرف على ذهنيات وعقليات ومواقف النخبة من مسألة الوضع في البلاد .

وصفوة القول مما سبق ذكره في الفصل الثالث من الدراسة وما ميز مؤلفات ابن زيدان التي كانت كثيرة ومتنوعة ، وعالجت عدة قضايا تعنى بالدولة العلوية وبتاريخها العريق ، وتاريخ سلاطينها وعلمائها وأمرائها ، وما كان من سياستهم وعلاقاتهم مع الدول على مختلف مشاربها ، وقد فصل ذلك في كل هذه المؤلفات ولم يترك شيئا مما تعلق بالجوانب المذكورة ، بنظرة جديدة محاذية للنظرة التقليدية التي كتب بها المؤرخون السابقون ، بأفكار وأسلوب مبسط راعى فيه الظروف التي صاحبت تلك الفترة ، وكان شاهد عيان ومعاصر لها فترجمها في كتاباته التاريخية ، وكانت هذه المؤلفات بمثابة مساهمة في التاريخ المغربي بصفة عامة وتاريخ الدولة العلوية بصفة خاصة رغم مافيها من ذاتية جانبت الموضوعية في بعض الأحيان .

1- عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية ...، المصدر نفسه ،ص:31.

الخاتمة

لقد اتضح مما سبق أن عبد الرحمان بن زيدان كان من بين المثقفين المغاربة اللامعين الذين توسلوا بشتى ألوان التعبير للإعراب عما يخامرهم من تطلعات مبكرة للنهوض بفكر المغرب وتاريخه ، بإحياء تراثه والتعريف به والمساهمة في تطويره والإضافة إليه بالتجديد .

وبحكم الانتماء للدولة العلوية ، لم يشأ ابن زيدان أن يظل بعيدا عن ثقافة عصره ، بل تحفز لينطلق نحو آفاق وجدت هوى نفسه لإمدادها وإغنائها ، في التركيز على التاريخ والعناية به وكتابة تاريخ وأمجاد الدولة العلوية بالمغرب الأقصى ، كما كانت له عناية بالأدب وقد وظف كل من التاريخ والأدب في تداخل منسجم مع ما كان متعارف عليه في القرن التاسع عشر وفي عصره ذاك ، وما كان معهودا به قبله .

وكان اهتمامه في كتاباته وأعماله التاريخية هو استحضار ما كان مألوفا عند القدماء من مضامين وأساليب وصفت عند غير الراضين عنها من الراغبين في التغير بأنها تقليدية بالية ، وما كان له ولأمثاله من مؤرخين في أواخر القرن التاسع عشر أن يحيدوا عن ماهو مألوف ، وهم يرون في تمثله والاقتباس منه والنسج على منواله خير وسيلة لتجاوز واقع ثقافي منهار ، وكذا التغلب على الظروف المتأزمة التي كان يعيشها المغرب الأقصى وهو مهدد بالاستعمار ، وكان يرزح تحت نير الحماية لمدة طويلة .

وقد كان التمسك بالقديم بالنسبة لابن زيدان ومن عاصره من جيله بالنسبة لهم بمثابة السلاح لمواجهة التحديات المختلفة التي كانت تعترض المغرب الأقصى في تلك الفترة في شتى الميادين ، وكانت مساهماتهم إلا للدفاع عن مقومات وعراقة البلاد المغربية وما زخرت به الدولة العلوية ، وإظهار ما لديهم من قدرة على مسايرة كل الأحداث والتغلب عليها مهما كان شأنها.

واستطاع ابن زيدان من ربط حاضره بالماضي الذي كان حافلا بالأمجاد والبطولات ، على غرار الوقت الراهن من سطوة الاستعمار وتهاوي المغرب الأقصى في براثين الحماية ، كما أنه رغم ذلك

يثبت كيانه ويقوي ذاته ويحث الأجيال إلى شحذ العزائم والمضي في متابعة المسار وعدم الاكتراث بما يدور في فلك العصر من أحداث قد تجر المغرب الأقصى إلى القضاء على عراقته وهويته ومكانته التي حيزت له على مر الدهور .

كما كان للمؤلفات التي قام عبد الرحمان بن زيدان بتدوين صفحاتها أثر كبير على تبيان وتوضيح الرؤية الحقيقية التي حازتها فعلا الدولة العلوية ، وتسجيل أحداث تلك الفترة التي عاشها عبد الرحمان بن زيدان وشاهد مجرياتها في كتب كانت بمثابة التاريخ الذي يدافع عن أمجاد المغرب الأقصى ، وقد تنوعت مشارب تلك الكتب بين ما هو تاريخ محلي والتأريخ للمدن المغربية مثل حاضرة مكناس التي أفردها ابن زيدان بكتاب "إتحاف أعلام الناس ..." الذي لم يترك فيه شيئا إلى خطته أنامله عن مسقط رأسه ومدينة انتمائه .

كما كانت له صولات وجولات في مختلف الميادين فطرق باب العلائق السياسية أو التاريخ السياسي والدبلوماسي للدولة العلوية وتتبع من خلالها كل ما كان في الحياة السياسية في الدولة العلوية من مراسلا واتفاقيات بين السلاطين ورؤساء الدول الأجنبية ،ورصد كل كبيرة وصغيرة عن تلك الأحداث ، ناهيك عن المؤلفات الأخرى التي اختصت بالتاريخ بالجانب العلمي للدولة العلوية أو النهضة العلمية طوال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أو حركة التأليف التاريخي التي نالت القسط الوافر من إنتاجه العلمي .

وكان لأمجاد الدولة العلوية وسلاطينها حظ كبير في مؤلفات عبد الرحمان بن زيدان التاريخية من خلال تتبع منجزات سلاطينها ومعاملاتهم وشؤون الحكم في عهد كل سلطان ، وقد خص السلطان إسماعيل بمؤلف كامل أسماه المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل عرض فيه لكل تفاصيل ما يتعلق بالسلطان المترجم له ، ليبقى هذا المؤلف يعرف بهذا السلطان وكمصدر وشاهد عيان على فترة عاشها وكتب عنها وأرخ لها ، وفاخر واعتز بهذا السلطان إلى درجة تعظيمه والذود عنه فيما أنكره عليه غير ابن زيدان في ذلك .

وكان لهذه المؤلفات على اختلاف مشاربها الأثر الحسن لما كان لها من صدى واسع في أوساط المغاربة ، وذلك لأنها كانت تزخر بمحطات هامة من تاريخ المغرب الأقصى في الفترة المعاصرة ، ناهيك عن وقوفها كرادع في وجه المغالطات التي كانت تسوق لها سلطات الحماية التي أرادت تشويه وطمس معالم تاريخ المغرب ، ولكن ابن زيدان رأى غير ذلك فأراد الرد عن ذلك بمؤلفات لنهوض بهمم الشباب في ذلك الوقت وعدم تصديق والانسياق وراء ما يدعيه المستعمر .

ويبقى ابن زيدان من الكتاب والمؤرخين الذين كتبوا بحكم الانتماء للوطن ليحيد عن الموضوعية في بعض الأحيان وتراه يخوض في غمار التبجيل والتعظيم وغيرها من التعابير التي دلت على أنه يبقى من مؤرخي البلاط ، ولكن مؤلفاته كانت فعلا مفخرة للمغرب الأقصى لأنها في طيات صفحاتها ناضلت على لسان صاحبها عن معالم العز والازدهار والرقي التي امتازت بها بلاد المغرب الأقصى قبل أن يتم تدنيس ذلك من قبل سلطات الحماية .

الملاحق

الملحق رقم (01)

صورة لعبد الرحمان بن زيدان

المرجع : عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، ص : 11

الملحق رقم (02)

عبد الرحمان بن زيدان في بيته

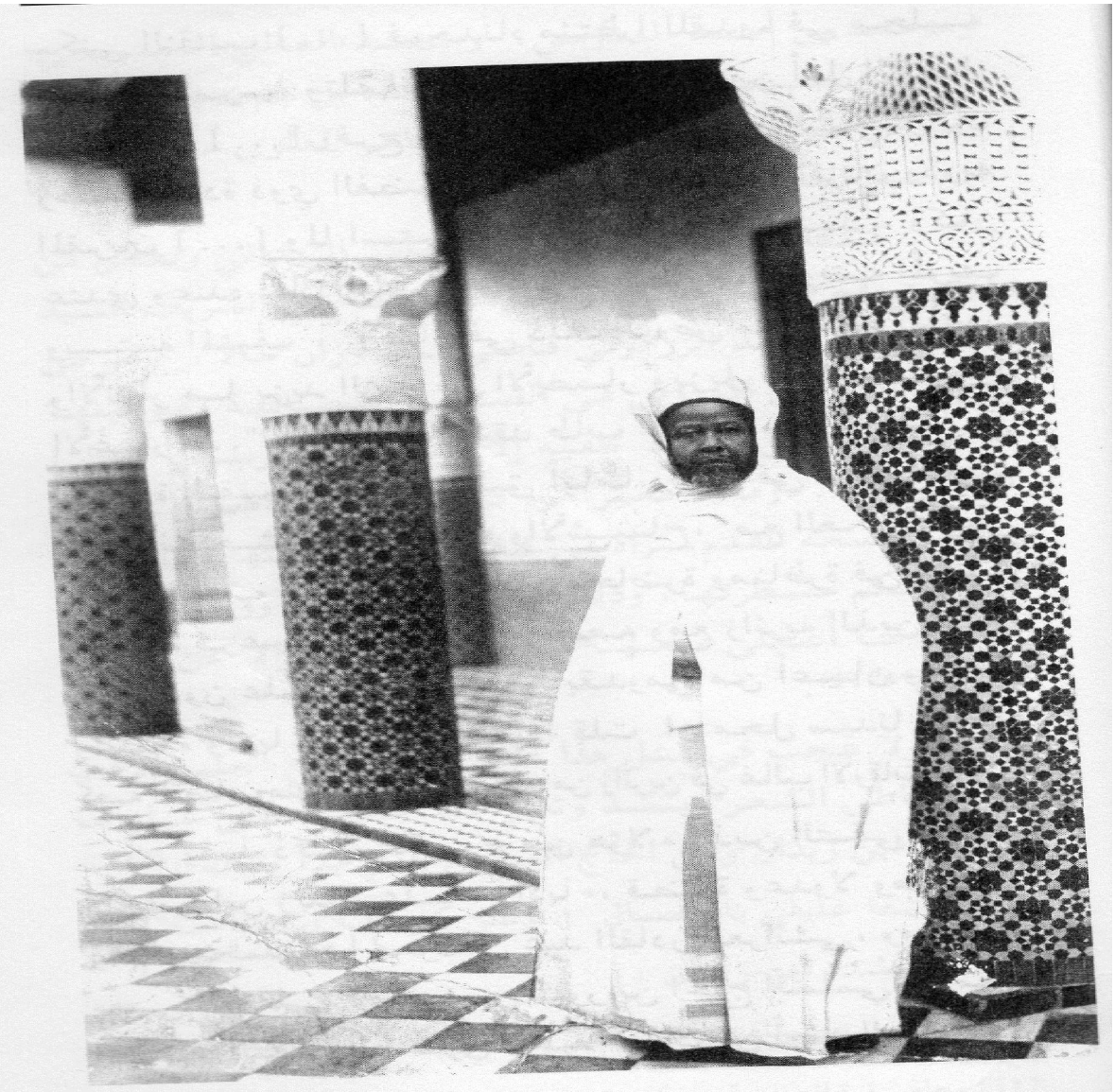

المرجع : سعيد بن سعيد العلوي ، العلامة عبد الرحمان بن زيدان، ص:279.

الملحق رقم (03)

عبد الرحمان بن زيدان في شبابه داخل مكتبته

المرجع : أحمد التوفيق وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان، ص:272.

الملحق رقم (04)

عبد الرحمان بن زيدان ومطالعته للكتب داخل مكتبته

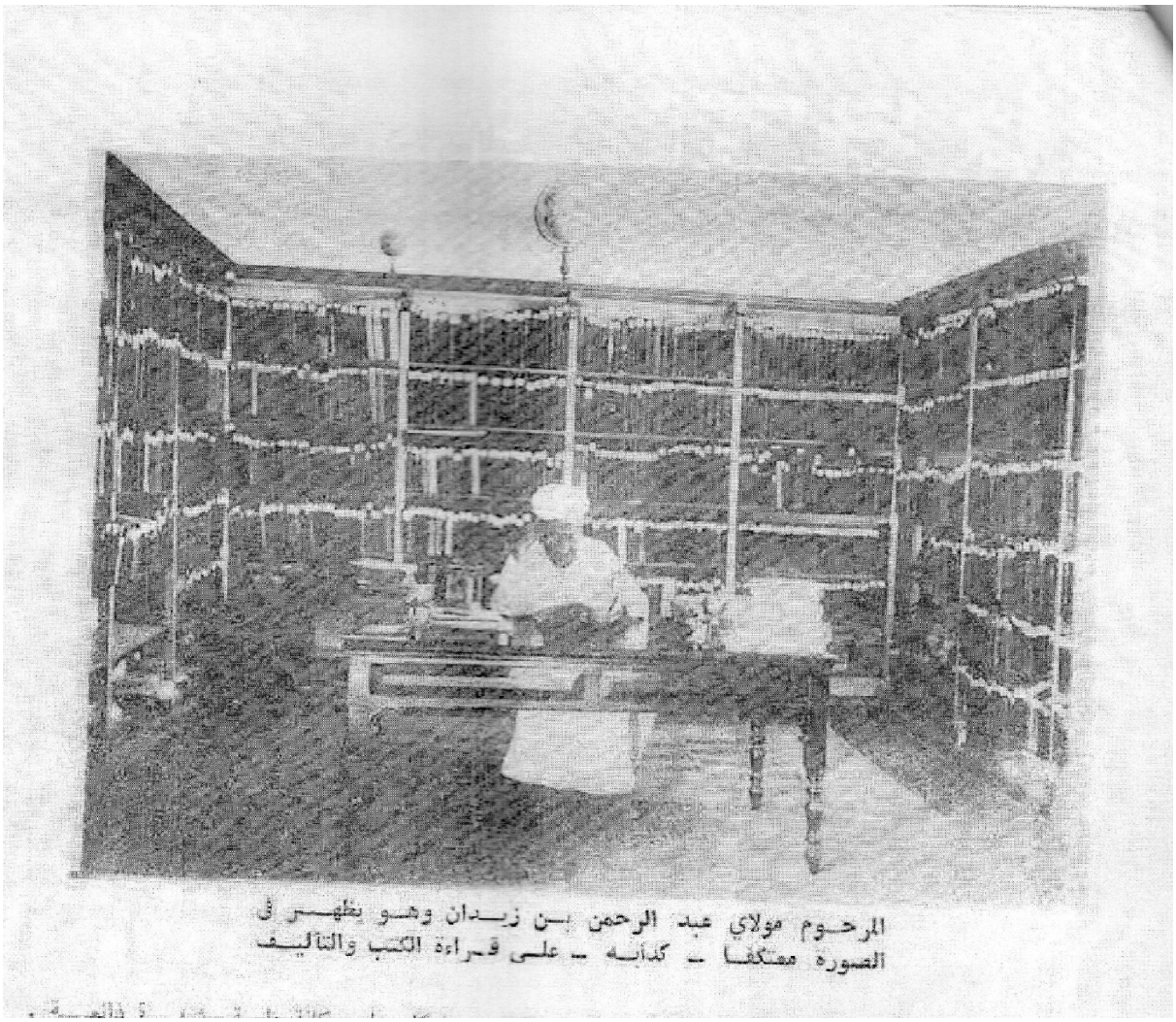

المرحوم مولاي عبد الرحمن بن زيدان وهو يظهر في الصوره ممتكئا - كدأبه - على قراءة الكتب والتأليف

المرجع : محمد المنوني ، مؤرخ مكناس عبد الرحمان بن زيدان ، ص: 93.

الملحق رقم (05)

مكتبة أو خزانة عبد الرحمان بن زيدان وصورة له

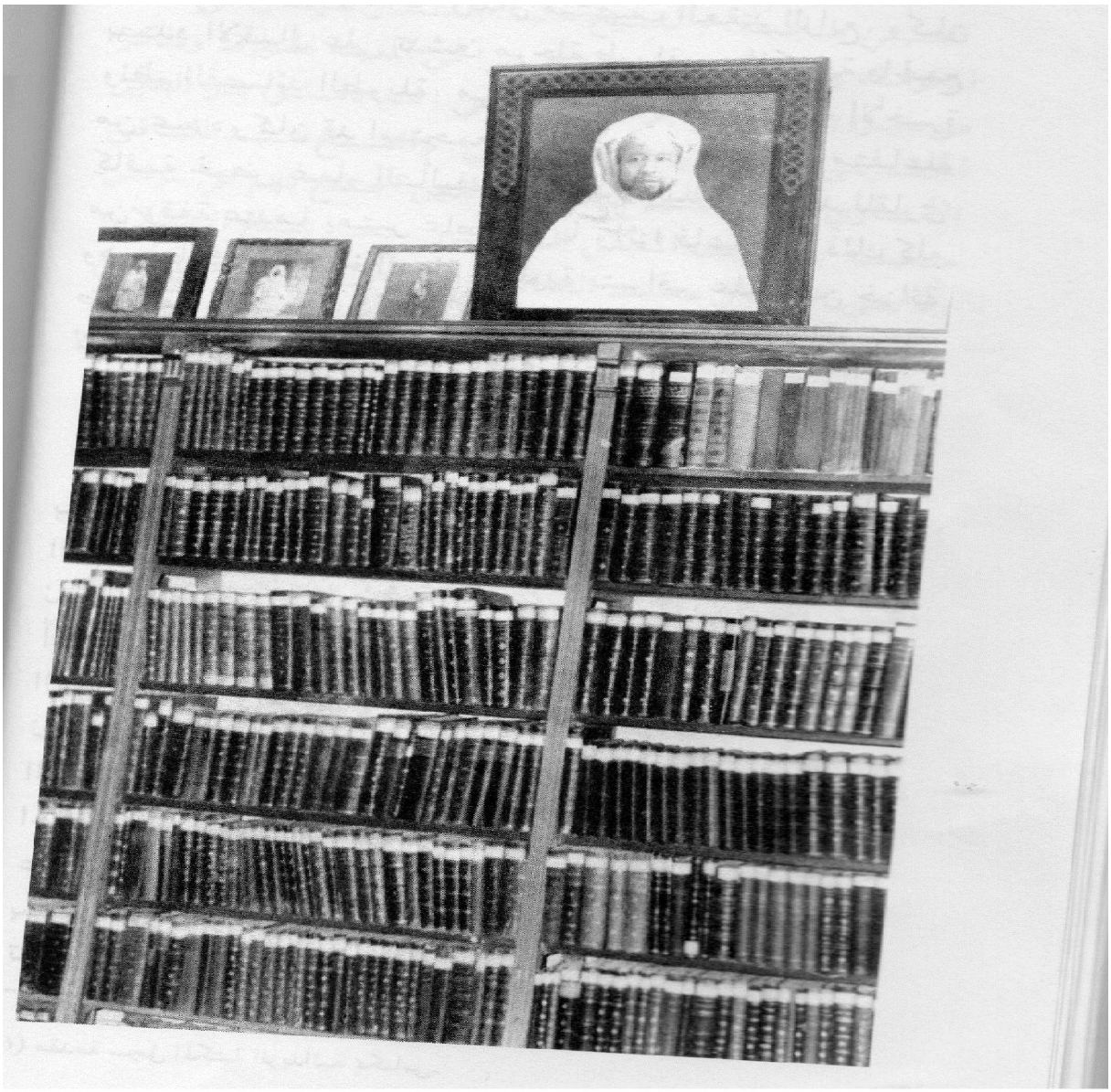

المرجع : عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، ص:126.

الملحق رقم (06)

عبد الرحمان بن زيدان رفقة علماء من جيله وعصره

المرجع :الموقع الالكتروني ،صفحة موقع التواصل الاجتماعي ، أرشيف صور علماء وأعلام الشام،**أرشيف صور علماء وأعلام الشام** ،https://www.facebook.com/341429059391283، تاريخ النشر هو ،23 جانفي 2018.

الملحق رقم (07)

صورة جماعية لعبد الرحمان بن زيدان في بيته مع طلبته وبعض أفراد أسرته

المرجع :الموقع الالكتروني ،صفحة موقع التواصل الاجتماعي ، أرشيف صور علماء وأعلام الشام،أرشيف صور علماء وأعلام الشام ،**https://www.facebook.com/341429059391283**،

تاريخ النشر هو ،23 جانفي 2018.

الملحق رقم(08)

صورة لعبد الرحمان بن زيدان رفقة مجموعة من العلماء بمنزله سنة 1931.

المصدر :عبد الرحمان بن زيدان ، معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين ، واجهة الكتاب ، ص:1

الملحق رقم(09)

صورة جماعية لعبد الرحمان بن زيدان مع مجموعة من العلماء في لبنان خلال القرن 19م

المرجع :الموقع الالكتروني ،صفحة موقع التواصل الاجتماعي ، أرشيف صور علماء وأعلام الشام،أرشيف صور علماء وأعلام الشام ،**https://www.facebook.com/341429059391283**،

تاريخ النشر هو ،23 جانفي 2018.

الملحق رقم (10)

صورة لعبد الرحمان بن زيدان وهو يتوسط أحد الاحتفالات بمكناس

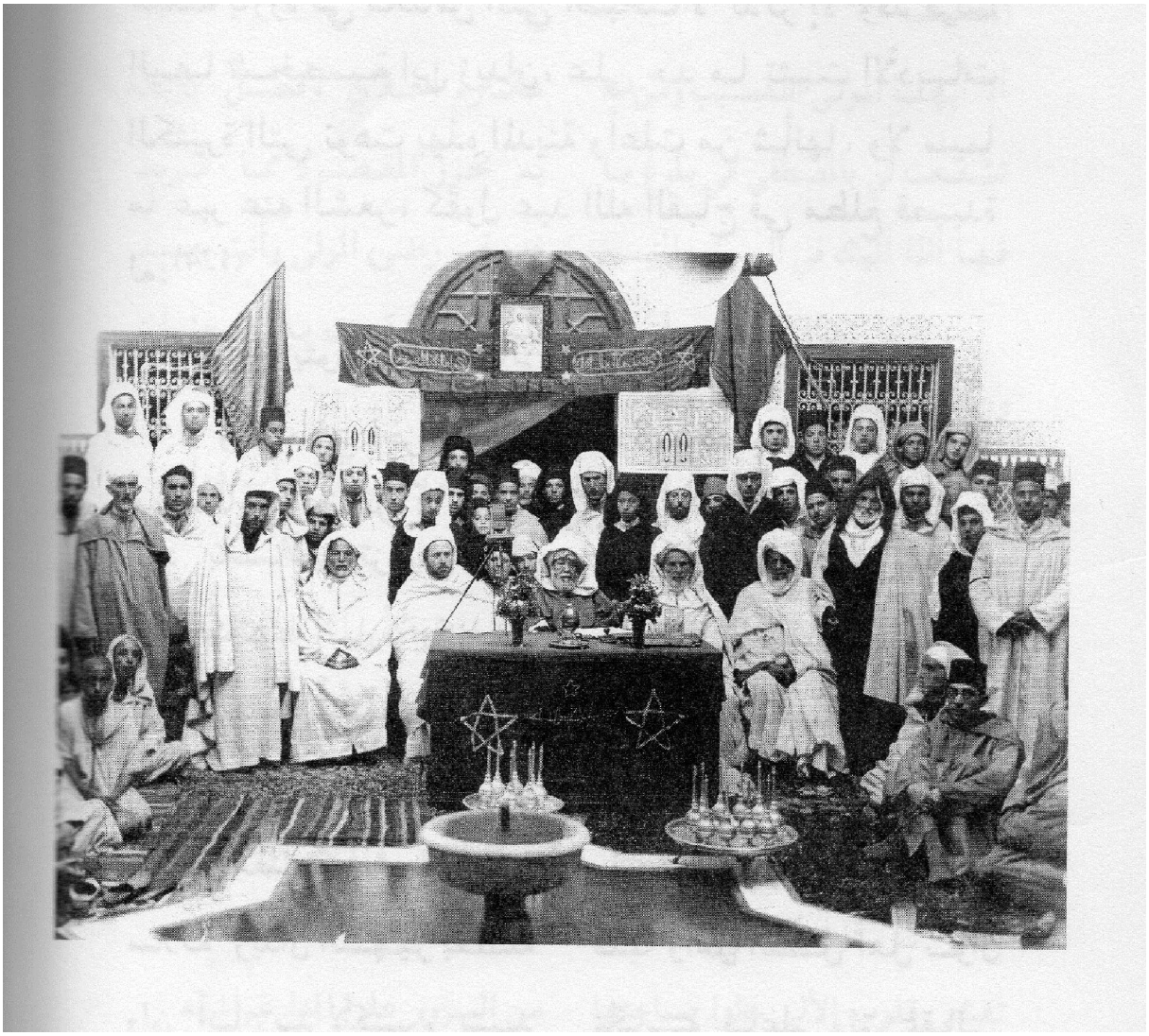

المرجع : عباس الجراري وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ،ص:286.

الملحق رقم (11)

رسالة بخط عبد الرحمان بن زيدان إلى صديقه محمد بن أحمد العلوي

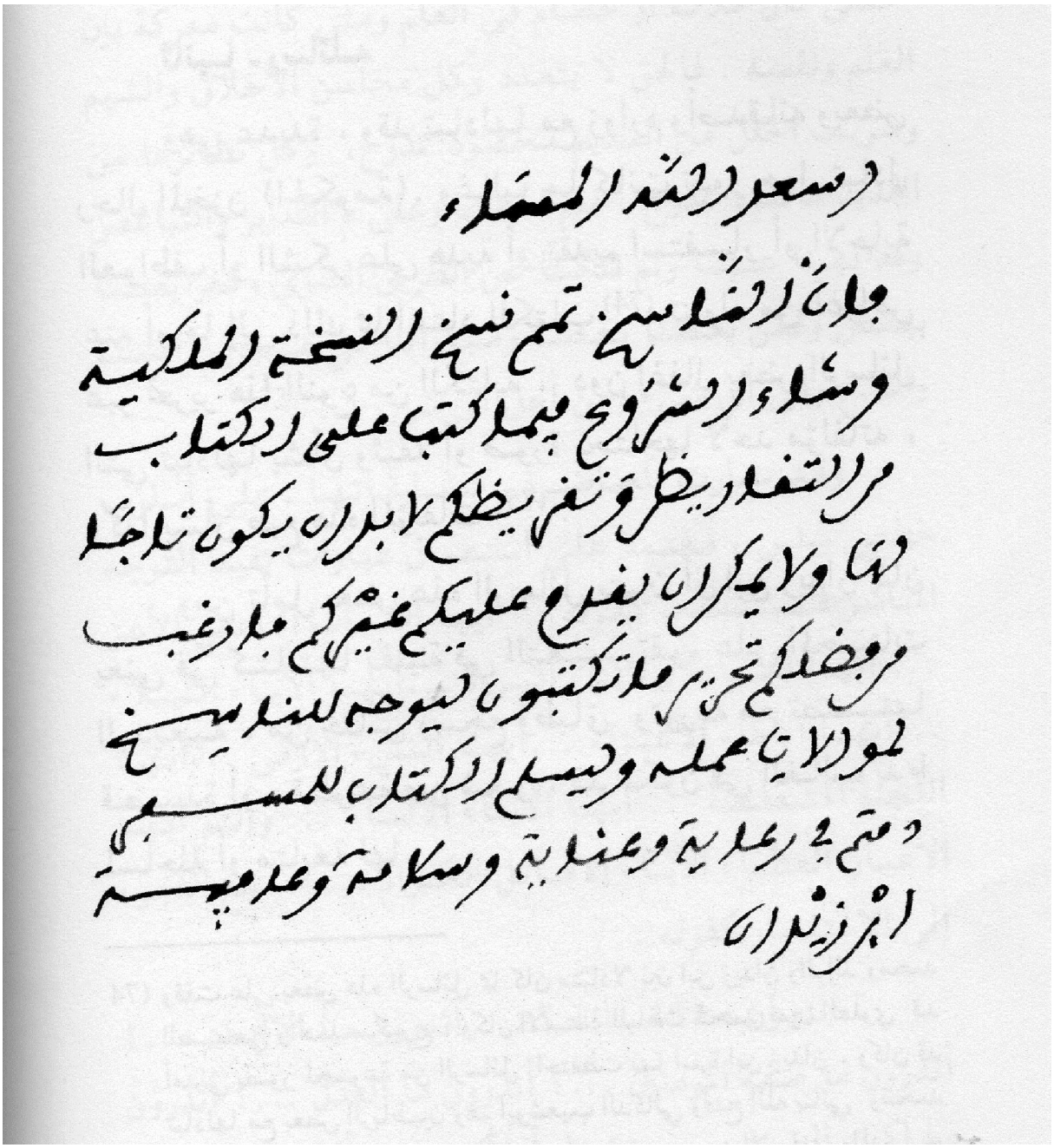

المرجع : أحمد التوفيق وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، ص:250.

الملحق رقم (12)

صورة السلطان محمد بن يوسف وعليها إهداؤه لعبد الرحمان بن زيدان ملقبا إياه "بمؤرخ دولتنا"

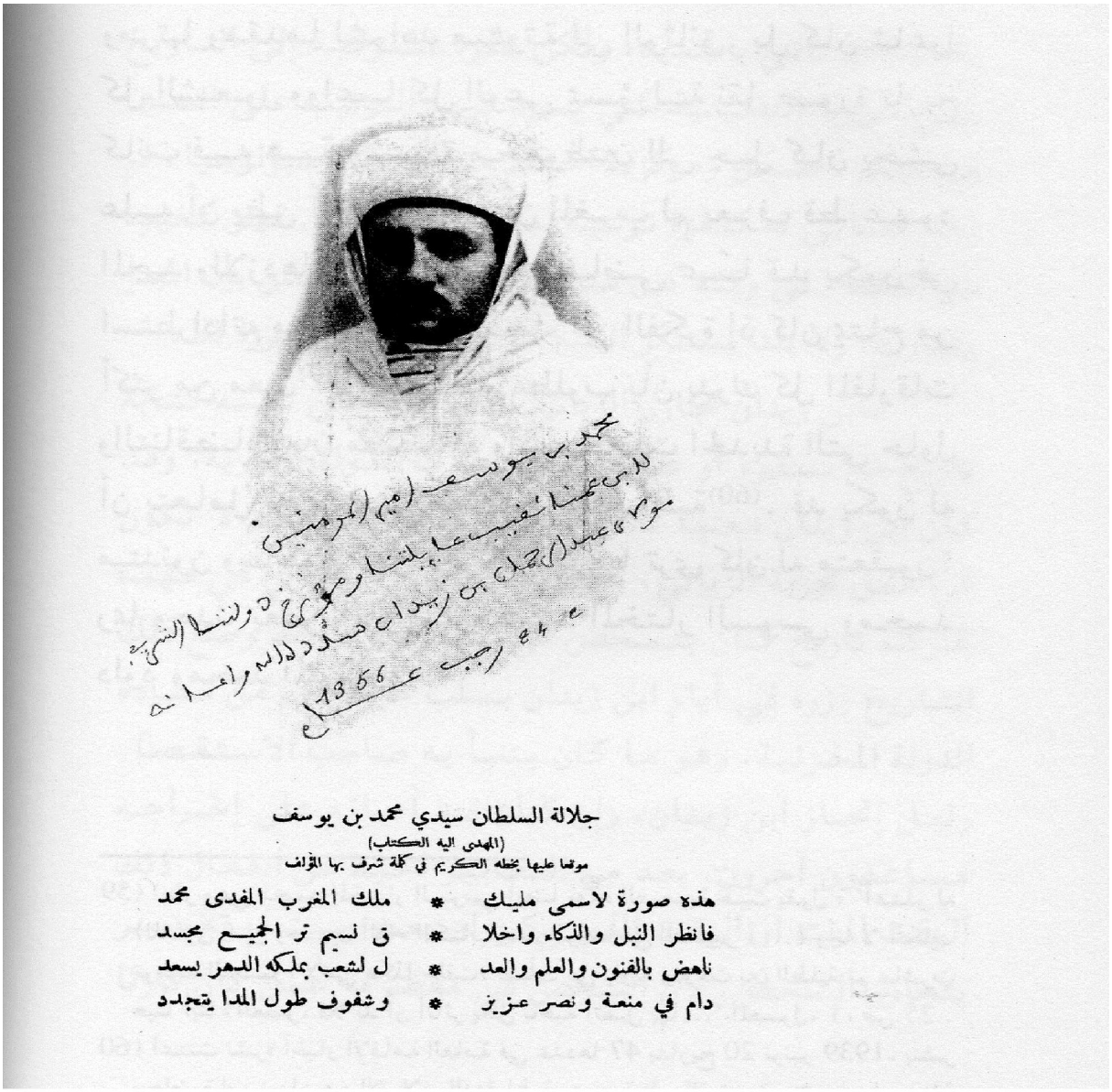

جلالة السلطان سيدي محمد بن يوسف
(المهدى اليه الكتاب)
موقعا عليها بخطه الكريم في كلة شرف بها المؤلف

هذه صورة لاسمى مليك * ملك المغرب المفدى محمد
فانظر النبل والذكاء واخلا * ق نسيم تر الجميع مجسد
ناهض بالفنون والعلم والعد * ل لشعب بملكه الدهر يسعد
دام في منعة ونصر عزيز * وشفوف طول المدا يتجدد

المرجع : أحمد التوفيق وآخرون ، عبد الرحمان بن زيدان ، ص:195.

الملحق رقم (13)

صورة لواجهة كتاب العلائق السياسية لعبد الرحمان بن زيدان

المصدر : عبد الرحمان بن زيدان ، العلائق السياسية للدولة العلوية ، واجهة الكتاب

الملحق رقم (14) صورة لواجهة كتاب إتحاف أعلام الناس

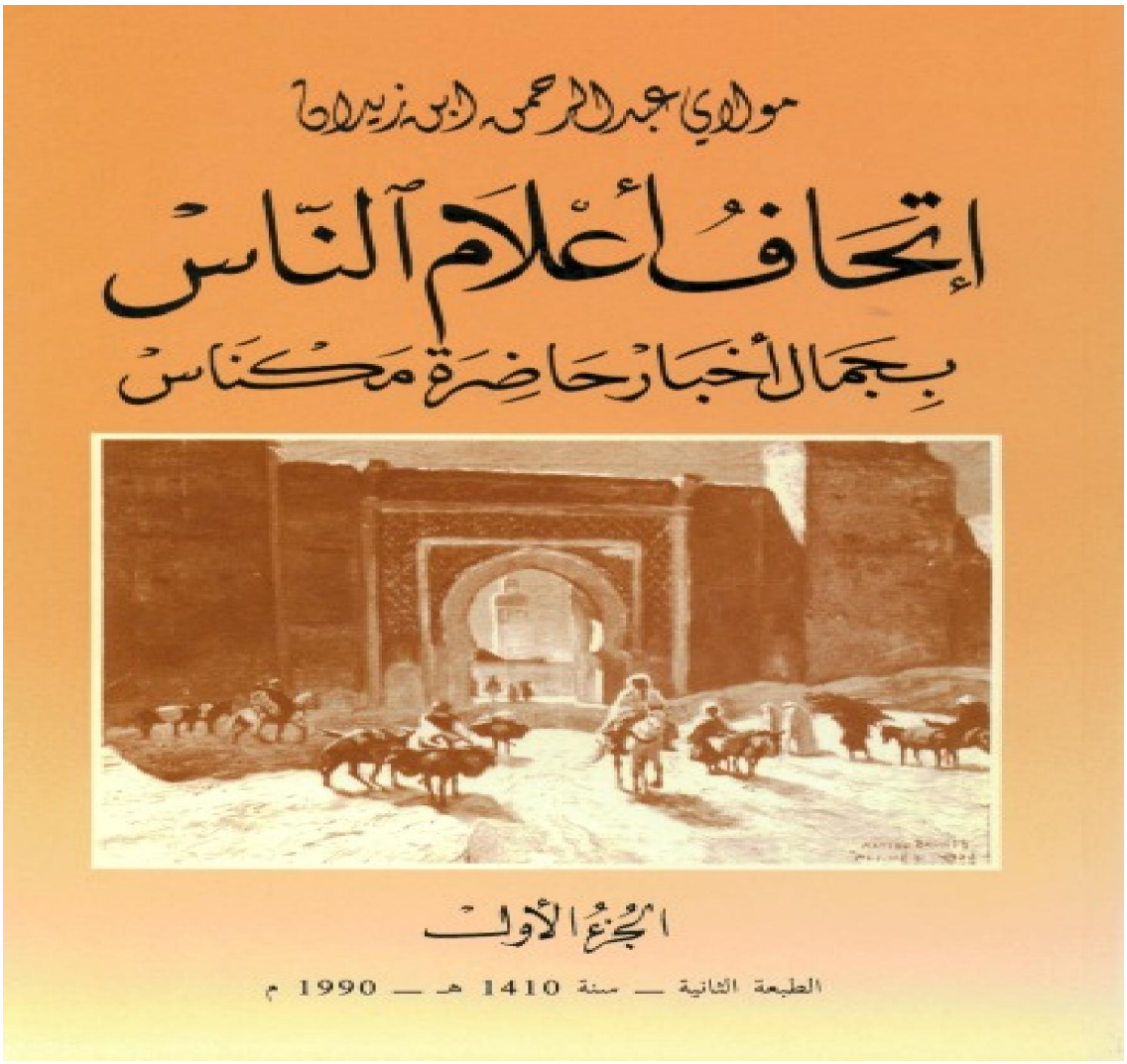

الملحق رقم (15)

صورة لواجهة كتاب المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف.

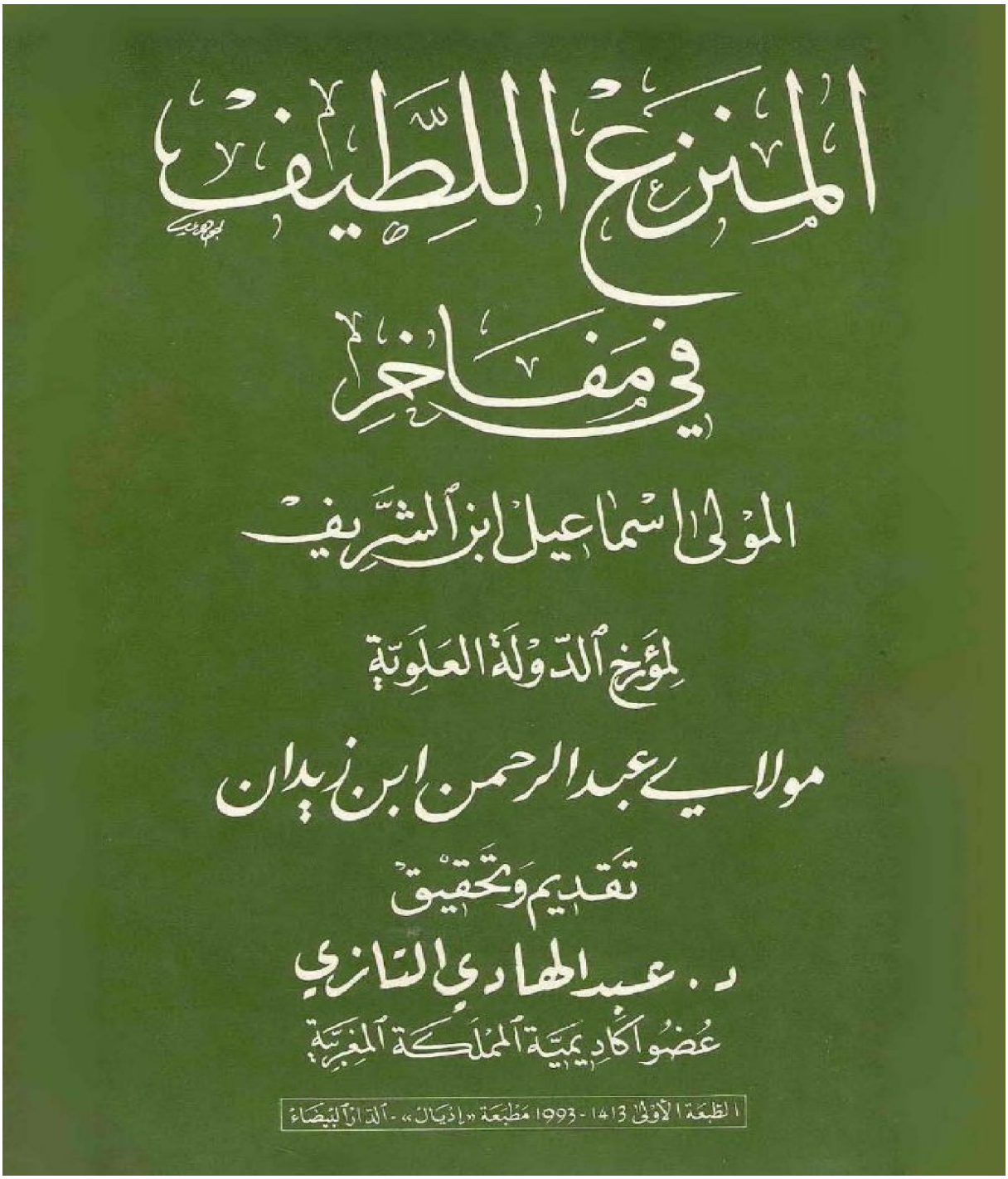

الملحق رقم (16)

صورة لواجهة كتاب " معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين"

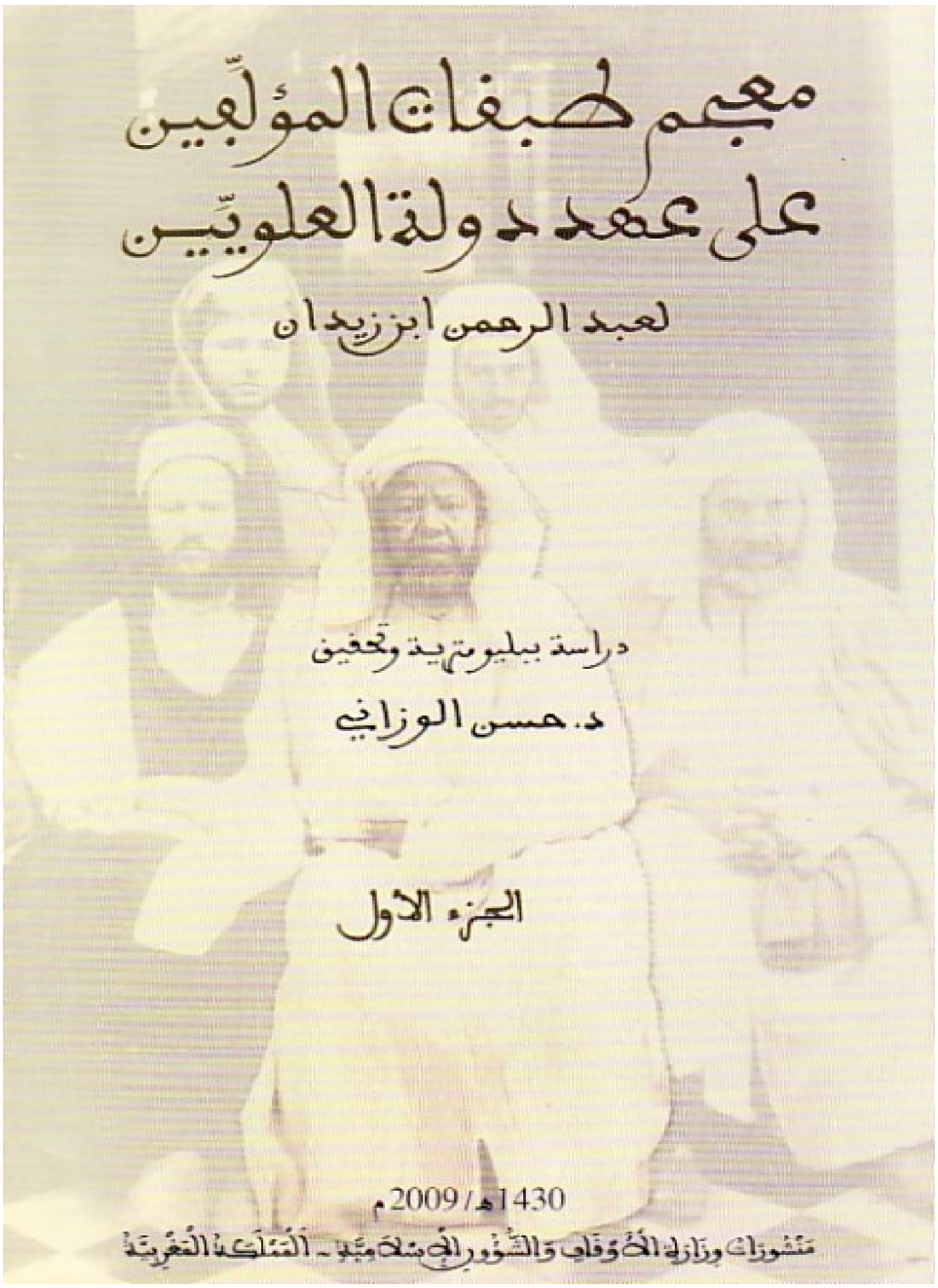

قـائمة المصـادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

أولا : المصادر:

1- الزركلي خير الدين ، الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ج:1، ط:7 1986.

2- السوسي محمد المختار ، سوس العالمة ، الدار البيضاء ، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، ط:2 ،د س ن.

3- بن العتيق ماء العينين ، الرحلة المعينية ، تح : محمد الظريف ، الرباط ، مؤسسة الشيخ مربيه لإحياء التراث والتبادل الثقافي ، ط: الأولى ، 1998.

4- بروفنصال ليفي ،مؤرخو الشرفاء، تعريب :عبد القادر الخلادي ،سلسلة تاريخ المغرب 5،الرباط ،دار المغرب لتأليف والترجمة والنشر ،1977.

5- داود محمد ، تاريخ تطوان ، مطبوعات معهد مولاي الحسن ، تطوان ،ج: 1، 1959.

6- ابن زيدان عبد الرحمان ، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ،تق : عبد الهادي التازي ، الرباط ،مطبعة الوطنية ، 1929.

7- ابن زيدان عبد الرحمان ، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة ،الرباط المطبعة الاقتصادية ،1937.

8- ابن زيدان عبد الرحمان ، العز والصولة في نظام الدولة ، تح:عبد الوهاب بن منصور ،الرباط ، المطبعة الملكية ، ج:1، 1962.

9- ابن زيدان عبد الرحمان ، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف ، تح : عبد الهادي التازي ، الدار البيضاء ، مطبعة إيديال ، 1993.

10- ابن زيدان عبد الرحمان ، معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين، تح : حسن الوزاني، ، المملكة المغربية ،منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،ج:1 ، 2009م.

11- ابن زيدان عبد الرحمان ،العلائق السياسية لدولة العلوية ، تح : عبد اللطيف الشاذلي ، الرباط : المطبعة الملكية ،1420هـ -1999م.

12- سكيرج أحمد ، الرحلة الزيدانية ، تح : محمد الراضي كنون ادريس الحسني،دس ن.

13- ابن سودة عبد السلام ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ،بيروت ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1997.

14- ابن سودة عبد السلام ، سل النضال بأشياخ وأهل الكمال فهرس الشيوخ ، تح: محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي.

15- ابن سودة عبد السلام ،سل النضال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال ، في موسوعة أعلام المغرب ، تح:محمد حجي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ،ج:9 ، 1996.

16- بن منصور عبد الوهاب ، مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد 1860،الرباط ، المطبعة الملكية ،ط:2،1985م.

ثانيا : المراجع :

17- الإدريسي إدريس بن الماحي ، معجم المطبوعات المغربية، مطابع سلا ، 1988.

18- البزاز محمد أمين ، الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19م، الرباط ، جامعة محمد للنشر ،1983.

19- الترغي عبد الله المرابط ،فهارس علماء المغرب ، منذ نشأتها إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة ،منهجيتها ،تطورها ، قيمتها العلمية ،تطوان ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

20- الجراري عباس و العلوي سعيد بنسعيد و توفيق أحمد ، عبد الرحمان بن زيدان ،أعلام المغرب، مطبعة إديال ، 1998.

21- الحسني الإدريسي القيطوني ، إدريس بن الماحي ،معجم المطبوعات المغربية ، سلا ، مطابع سلا، 1988.

22- الشابي مصطفى ، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر ، الرباط ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، 1995م.

23- الطاهري عبد العزيز ، الأستوغرافيا العربية المعاصرة بين التاريخ والذاكرة المغرب أنموذجا ، الفصل الرابع والعشرون، ضمن كتاب التأريخ العربي كيف كتب وكيف يكتب ،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، ط:1 ، أفريل 2017.

24- العلوي سعيد بنسعيد ، من مكنونات الخزانة المغربية المعاصرة نص للمؤرخ عبد الرحمان بن زيدان ، مجلة التاريخ العربي ، العدد :التاسع والأربعون ،1430هـ-2009م.

25- المنوني محمد ، المصادر العربية لتاريخ المغرب ، الرباط ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ج:2،د س ن.

26- المنوني محمد ، مظاهر يقظة المغرب الحديث ، الرباط ، مطبعة الأمنية ، ج:1، ط:1، 1973م.

27- بن تاويت محمد ، الوافي بالأدب العربي بالمغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ج:3 ،1994.

28- بن عبد الله عبد العزيز ، تاريخ المغرب ، العصر الحديث والفترة المعاصرة ، الداء البيضاء ، مكتبة السلام للنشر ،ج:2، د س ن.

29- طحطح خالد و بكور محمد ، مؤرخون مغاربة في الفترة المعاصرة ، الرباط ،مجلة الأمل ، التاريخ ، الثقافة والمجتمع ، ط1 ،2017.

30- غلاب عبد الكريم ، قراءة جديدة في تاريخ المغرب الغربي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ج:3، ط:1 ،2005م.

31- معريش محمد العربي ، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول ،بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ط:1 ، 1998.

ثالثا : المجلات

32- الشابي مصطفى ، عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا سياسيا ،الرباط ،مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة محمد الخامس ، العدد :11، 1998.

33- العلوي سعيد بنسعيد ، من مكنونات الخزانة المغربية المعاصرة ، الرباط ، جمعية المؤرخين ، مجلة التاريخ العربي ، العدد: التاسع والأربعون ، 2009م.

34- المنوني محمد ،مؤرخ مكناس ابن زيدان ، مجلة دعوة حق ، السنة العاشرة ، العدد الأول ،رجب 1386هـ-1966م.

35- إدريس أبو إدريس ، قراءة في كتاب المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف ، مجلة مكناسة ، جامعة مولاي اسماعيل ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،عدد:11 ،1997.

36- العلوي سعيد بنسعيد ، مؤرخ المملكة المغربية ابن زيدان ، مجلة: التاريخ العربي ،العدد:9، 1999.

- المذكرات

37- قوبع عبد القادر ، الحركة الإصلاحية في منطقة الحماية الفرنسية بالمغرب الأقصى بين سنتي 1912و1956 ، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر ، جامعة الجزائر 2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ،قسم التاريخ ، 2013-2014.

– المواقع الالكترونية :

38- أرشيف صور علماء وأعلام الشام

https://www.facebook.com/341429059391283، تاريخ النشر هو 23، جانفي 2018.

فهرس الموضوعات

الموضوع .....الصفحة

إهداء

شكر وعرفان

مقدمة ..... أ

المدخل : الأوضاع العامة بالمغرب الأقصى في عصر عبد الرحمان بن زيدان

أولا : الأوضاع السياسية **8**

ثانيا : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية **12**

ثالثا : الأوضاع الثقافية **14**

رابعا :واقع الكتابة التاريخية بالمغرب الأقصى في العهد العلوي **15**

الفصل الأول : عبد الرحمان بن زيدان النشأة والتكوين

المبحث الأول : التعريف بعبد الرحمان ابن زيدان 20-21

اولا :المولد والنشأة **21**

ثانيا : تعليمه **25**

ثالثا :مكتبته ومجالسه **29-32**

رابعا: وفاته.....**34**

المبحث الثاني : النشاط العلمي لعبد الرحمان بن زيدان 35

أولا : محاضراته ومسامراته العلمية.....**35**

ثانيا : الرسائل المتبادلة بين ابن زيدان وبعض علماء عصره **38**

ثالثا : رحلاته العلمية **41**

رابعا : مؤلفاته... ....**43**

الفصل الثاني : عبد الرحمان بن زيدان مؤرخا

المبحث الأول :مساهمة عبد الرحمان بن زيدان في كتابة التاريخ 50

أولا : مفهوم التاريخ عند ابن زيدان **51**

ثانيا : دور ابن زيدان في كتابة تاريخ المغرب على العهد العلوي **55**

ثالثا : الظروف التي ألف فيها ابن زيدان تاريخه.....**62**

المبحث الثاني : عبد الرحمان ابن زيدان أسلوبه وفكره في كتابة التاريخ 66

أولا: أسلوب ابن زيدان في كتابة التاريخ.....**66**

ثانيا :الأفكار السياسية لعبد الرحمان بن زيدان.....**67**

ثالثا : وسائل كتابة التاريخ عند ابن زيدان.....**72**

المبحث الثالث: موضوعات التاريخ عند عبد الرحمان بن زيدان.....75

أولا : التاريخ السياسي والعسكري.....**75-77**

ثانيا : التاريخ الاجتماعي **78**

ثالثا : التاريخ الديني والقضائي **82**

الفصل الثالث: مؤلفات عبد الرحمان بن زيدان عن تاريخ الدولة العلوية

المبحث الأول : كتاب "إتحاف أعلام الناس"وأهمية في التأريخ للعاصمة الاسماعلية مكناس.....83

أولا :التعريف بالكتاب.....**83**

ثانيا: محتوى الكتاب.....**84**

ثالثا: منهج ابن زيدان في كتابه **89**

رابعا:أهمية الكتاب.....**92**

المبحث الثاني : كتاب "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين" وأهميته في التأريخ لحركة التأليف التاريخي بالدولة العلوية..... 94

أولا :نسبة الكتاب لمؤلفه.....**94**

ثانيا: حركة التأليف التاريخي على العهد العلوي.....**96**

ثالثا: محتوى الكتاب.....**98**

رابعا: أهمية الكتاب.....101
المبحث الثالث : كتاب "المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف"وأهميته في التعريف بالسلطان إسماعيل 102
أولا : محتوى الكتاب.....103
ثانيا: السلطان إسماعيل بن الشريف مميزاته ومنجزاته.....104
ثالثا: أهمية الكتاب.....106
المبحث الرابع : كتاب "العلائق السياسية للدولة العلوية" وأهميته في كتابة التاريخ السياسي والدبلوماسي للدولة العلوية 110
أولا : عنوان الكتاب.....110
ثانيا: محتوى الكتاب.....111
ثالثا: مصادر ابن زيدان في تأليف لكتاب.....116
رابعا: أهمية الكتاب.....117
الخاتمة 122
الملاحق 127
فهرس المصادر والمراجع 145
فهرس الموضوعات 152